

روايات مصرية للحيث

H.I.V

سافاري

27

Looloo

www.dvd4arab.com

د. محمد خير الزنوفية



مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة
(سافرية) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى)
فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال
(إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها هنا كانت تصطاد
المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية
لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهل متشككين ..

بطلنا الذى سنقبله يوماً ، ونألفه ، ونتعلم أن تحبه
هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب ..
اختار أن يبحث عن ذاته بعيداً وسط أدغال (الكامبيون) ، وفى
بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطر لا تنتهى فى كل لحظة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. تعيش معه
ذلك العالم العجيب الذى لم تتجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى لكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجننين ..
وأكلة لحوم البشر .. والمرمزة الذين لا يمزحون ..
وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طهيها للشباب كي يظل
 حيا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيئا ..
 تعالوا نلحق بوحدة (سفاري) فى (الكامبيرون) ..
 تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونسلك البراكين ..
 تعالوا نواجه المرض مع فريق (سفاري) ..

★ ★ ★

1- عدنا !

ها نحن أولاء قد عدنا إلى (سافارى) .. (سافارى)
الأولى الأصلية بالنسبة لى ..

لقد كنا فى المركز الرئيسى فى (كينيا) ، وإلى حد ما
كان كثيرون يغبطوننا على ذلك .. وبعضهم يحسدنا .. لكنكم
كنتم معنا هناك وتعرفون أن حياتنا هناك لم تكن نزهة فى
(ديزنى لاند) .. كانت هناك مصائب وكوارث ومشاجرات
ونوبات اكتاب ..

لكنى سأذكر دوما لوحدة (سافارى - 1) أنها المكان
الذى حققت فيه حلمى .. وأن (برنات) صارت لى للأبد ..
صحيح أن بقرة القبول غرست هنا ، لكنها ازدهرت هناك ..
ولاشك أن لابتعادنا وشعورها بأننى الوحيد من عالمها
دورا لا بأس به فى هذا القبول .. ولو مكثنا هنا قليلا
تأخرت إجابتها كثيرا جدا ، أو لم تأت قط ..

لم تكن إجازتنا هائلة واعتقد أنك توافقتى على ذلك ..
كانت هناك مشاكل بط المشاكل ، وموضوع الظاهرة العجيب
الذى كان كابوسا حقيقيا أدعو الله أن يكون انتهى فعلاً ..

إلا أننا اختلصنا بضعة أيام أخيرة عرفت فيها حقاً لذة أن نتواجد أمي وزوجتي في مكان واحد وأن نكون صديقتين حميمتين .. إن التفاهم بالعاطفة حقيقى ولا يحتاج إلى لغة .. على العموم (برنادت) عرفت الكثير من العربية المسموعة والمنطوقة ، بينما أجادت زوجة أختي الكثير من العبارات الفرنسية ..

في النهاية تهتت بينما الطائرة ترتفع .. في المرة القادمة ستكون أمور كثيرة قد تغيرت .. هل أعود مع طفل أو طفلين ؟ هل أعود حياً أصلاً ؟ إن طريقي في الحياة وحظي الغريب يجعلان هذا نوعاً من الخيال العلمى .. هل ستكون أمي في استقبالنا في دارنا ؟ لقد لحقت بها هذه المرة بمعجزة ما .. فهل تتكرر هذه المعجزة بعد عامين أو ثلاثة ؟

أفكار تدور بذهنك بينما الطائرة تحلق فوق إفريقيا .. لها تصميم القدر وإصراره .. لا عودة .. هذا مصيرى وسوف أذهب إليه .. فقط الأطفال يستطيعون أن يصرخوا ويركلوا الأرض بأقدامهم طالبين العودة .. لكنى اخترت هذا الطريق ولن أراجع

وسألتنى (برنادت) وهى تريح مسند الرأس :

« هل أوحشتك (سافاري) ؟ »

هزرت رأسى .. أحمد الله أنتى من القلائد الذين يمكن
أن يقولوا إن مكان عملهم قد أوحشهم .. ولو كنت مسئولاً
عن مجموعة دافتر فى قيو مظلم رطب ، أو مطالباً بالرقاد
فى الوحل تحت سيارة لأؤكد من سلامة ماسورة العادم ،
أو مضطراً للقطن فى المجارى لتسليكها .. بالتأكيد ما كنت
لأشتاق لعملى بهذا القدر .. حمداً لله .. حمداً لله ..

الرحلة طويلة مرهقة .. لهذا يكون النوم هو خير
ما يمكنك عمله



أخيراً هى ذى (سافارى) التى تغلغلت فى خلاياى ..
هبطنا من السيارة فوجدنا عدداً من الأطباء يستقبلوننا ..
منهم من يحتضنك ومنهم من يصافحك بالطريقة الأمريكية
ومنهم من يصافحك بالبرود البريطانى .. من لا يبالى
بقدمك ومن يكرهه ومن يرقص طرباً له ..

إن مجيئك من انداب طويل أمر لا مشكلة فيه .. لكن
قدومك من المنفى أمر يختلف .. والأهم هنا أننا نعود
زوجين .. وقد رأيت (بسام) العزيز بين الصفوف .. إن
السلام على الطريقة العربية يختلف طبعاً فلا شيء يلوّقه

حرارة .. الكثير من القبلات والأحضان والعيون الدامعة ..
 إن (بسام) كتلة ملتهبة من العواطف الصادقة .. يضعك
 حتى يذرق لونه .. يبكى حتى تجف مقلتاه .. بغضب لدرجة
 القتل ..

تفجر بكلمنى باللهجة التونسية المحببة لينهمر على
 سيل من حروف (القاف) ، مقابلاً به كل ما انطلقت به من
 حروف (الهمزة) .. فقلت له همساً :

« ارحمنى .. تكلم ببطء أو بالفصحى .. »

فنحن لم ننس بعد موضوع (الدلاعة الرصينة) التى
 عرفت بصعوبة أنها (البطيخة الثقيلة) .. أو حين احتج
 على كلمة (الطاسة) التى هى المقلاة عندنا ، لأن (الطاسة)
 عندهم هى علبه الطعام المحفوظ الفارغة .. يومها سألته :
 إن لم تسمون (الطاسة) ؟

قال فى ضيق : نسميها .. نسميها أو شىء غير
 (الطاسة) !

هناك على الزواج الميمون .. ومن بين قوجوه رأينا
 (شيلبى) قائماً متبخترًا كعهدى به .. وقال لى :

« هل عرفت الآن السر ؟ لعيب لوك لم فى (سلطانى) ؟ »

تذكرت أنني أحمل كارثة معي أينما حلت .. لذا هزرت
رأسي في تواضع وقلت :

- « لدينا بيت شعر يقول :

نعيب زماننا والعيب فينا .. لو نطق الزمان إذن هجنا

أعتقد أنه يلخص الموقف .. »

ابتسم وقال وهو يصفحني :

- « من الجميل ألا تكون من العالين الذين يملئون الطرقات ..
سوف تعرف هذه العزية في لحظة الاحتضار ! »

لما المدير فكان في مكتبه قبلنا بالحرارة المعهودة له فلا أنكر
أنه شخص به من العواطف شيء كبير .. كان قد تردد سمعة ،
وبدا لي كأنما يحيا بمعجزة .. وعرفت أنه نشر عدة بحوث
قيمة في دوريات البيولوجيا الجزيئية ، مماثار دهشتي .

هذا الرجل ما زال يعمل كطبيب أحيانا .. لم تنسه
الإداريات كل شيء ..

سألته عن موضوع عبدة الأفاعي هذا .. هل عاد أحدهم ؟

هز رأسه وقال وهو يلوك شيئاً ما :

- « لا أثر لهم .. على كل - أكره أن أقولها صريحة -

ما دام (بودرجا) لم يتأذ وما دام حيًا يرزى ، فإن لى أن
أطمئن عليكما .. لا أعتقد أن هؤلاء القوم يعرفون أنك عنت ..
بل لا يعرفون أنك ذهبت ! »

قالت (برنات) وهى ترتجف :

- « أمل هذا من كل قلبى .. لكن الأمر يوحى بنهاية
مفتوحة كما فى السينما .. هناك تنمة Seduel لهذا الفيلم ..
ومن المعتاد أن تكون التتيمات أكثر دموية وعنفًا .. »

قلت باسمًا :

- « لا تنسى أن التتيمات هى الموضة هذه الأيام .. »

الآن انتقل المدير إلى الجزء العلى من الموضوع .. من
الواضح أننا لن نعيش للأبد فى مسكن الأطباء .. لهذا
عرض علينا (فيلا) صغيرة كان يعيش فيها قبل أن ينتقل
إلى مسكن أكبر .. (الفيلا) تتبع الوحدة فلن تكون علينا
أعباء مادية .. لكننا سنكون عمليًا خارج حدود الوحدة قرب
الدغل .. والمسافة إلى الوحدة على كل حال لا تزيد على
خمس دقائق على القدمين ..

نظرت إلى (برنات) وبصعوبة تعالكت نفسى كي لا أشب
على المدير لأوسع خديه الرجراجين تقبيلًا .. لربما جلست

على حجره كذلك وناديتـه (بابا) .. هاهى ذى أكثر مشاكلكنا
تحل فى ثقية واحدة .. والإقامة فى (فيلا) منفصلة متناسبنا
بالتأكيد .. طابق أرضى .. بالتأكيد هناك حديقة .. يبدو أن
أيام الغرفة الضيقة وجهاز طرد الأشباح المثبت فى
السقف ، قد انتهت إلى الأبد ..

بالطبع لم تكن هذه (فيلا) بالمعنى الدقيق للكلمة .

لكن يمكن القول أن هناك حديقة غير مهندمة .. لم يعتن
بها أحد من قرون ، وثمة بيت صغير من طابق واحد فيه
ثلاث غرف .. والغرف فى حالة يرثى لها من القذارة
والإهمال .. إن أحدا لم يأت هنا منذ أربعة أعوام ..

لكن هذه متعة أخرى كما تعلم .. تحويل هذا الحطام إلى
جنة أرضية .. هذه هى مزية الشباب .. أن تستمتع بوضع
كهذا وتأمل فى مزيد من التحسن .. بينما كبار السن
لا يقبلون إلا أن تكون الأشياء على خير حال .. لا وقت
لديهم ولا سعة صدر للبدا من جديد ..

فقط الشباب يمكن أن يرى فراشا يكلى أن تسعل جواره
كى ينهار ، وبرغم هذا يضحك حتى تدمع عيناه .. ويحاول

فى صبر إصلاحه .. وقد بدأت (برنات) فى حمامة
محاولة إعطاء طابع بشرى للحديقة .. لنا لا ألهم الأزهار ..
ولا أعرف عنها إلا أنها تصنع مربى ممتازة .. لكنها أعدت
كل شيء بدقة وبراعة ..

الخلاصة إن إعداد هذه (الفيلا) كان بمنحنا لحظات مرح
حقيقية ، بعد انتهاء ساعات العمل الذى عالت عجلته تدور
بانتظام ..

كانت الفيلا الصغيرة قريبة جداً من (سفارى) بحيث
يمكنك أن ترى معالم المباني من هذه المصافة .. لكنها
قريبة كذلك من الدخل .. ولهذا من أدهش يوماً لو صحوت
من النوم لأجد فهذا يشاركنى الفراش ، هذا بالطبع لو كانت
هناك فهود هنا .. لكنها غابة مهتبة لطيفة ..

هناك منزلان لهما نفس الطابع .. مما يشكل جيرة صغيرة
باسمة .. الفيلا الأولى يطنها طبيب الأمراض الباطنية
الكامبرونى (نولا لوبولو) وزوجته - وهى ممرضة لا تعمل
حالياً - وطفلاهما .. أسرة مهتبة راقية و(فى حالها) تعلمنا ..
ولنا أحب الجيران الذين لن نريد علاقتك بهم على المجاملات ..
إن العلاقات المسطحية تظل جميلة دليماً .. ما تعيق العلاقات
فهو الطريق الملكى إلى المشاكل .. المشادات .. الكراهية ..
وفى النهاية نصير حياتك جحيماً ..

الفيلا الثانية تقطنها طبيبة فرنسية مختصة بأمراض
العبون .. تدعى (سيمون مولينسار) .. زوجها السيد
(لوى مولينسار) مهندس اتصالات .. ويبدو أنه يعمل لدى
شركة بنجيكية فى (بواندى) .. إلا أن أكثر وقته ينقضى
هنا .. لم يرزقا بأطفال وهذا - فيما يبدو - جعلهما جالعين
إلى العلاقات البشرية .. لهذا هما الأكثر مودة واجتماعية ..
وفى أى وقت فى أية ساعة من اليوم لابد أن تجد أحدهما
حننا .. للمهندس لو كنت أنا موجوداً ، وزوجته لو لم أكن
موجوداً .. والاثنان معاً لو تواجدنا معاً ..

هذا يضايقنى بالفعل .. أمقت الزيارات لكى سأضطر إلى
ردها .. وأحب أن أسترخى يوم عطلة بدلاً من أن أجد ضيوفاً
فى دارى يريدون من يقضى بهم .. هكذا تقضى اليوم كله
مرحلاً ثقيل الجفنين تحاول أن تتابع المحادثات التى لا تنتهى ..

لكنى بالطبع أفضل زوجين ودودين على زوجين يلتهمان
الأطفال .. وقد صار من العسير اليوم أن تجد زوجين
لا يفعلان ذلك ..

ودودان بحق .. لكنى بدأت فى الآونة الأخيرة المسح
علامة استلھام تحوم حولهما

..HIV-2

من أين جاء ؟

من هو أبوه ؟ متى نشأ ؟

إنه لا يعرف شيئاً من هذا أو لا يذكره .. قيل إنه جاء من
القردة الإفريقية الخضراء ، وقيل إنه جاء من ظلام مختبر
للحرب البيولوجية ، وقيل إنه جاء من الفضاء الخارجي ..

لا يعرف هو نفسه ..

كل ما يعرفه هو أنه حي .. وأنه موجود .. وأن هذا
وئته ..

ربما لا يذكر عن نفسه إلا أنه كان في (سان فرانسيسكو) ،
وأنه ترعرع في عروق ذلك اللغز الزنجي .. إن (سان
فرانسيسكو) مدينة تعج بالفساد .. وهو يزدهر حينما يوجد
الفساد ..

عرف الكثير ورأى الكثير .. فقط كان يدرك الحقيقة
الأساسية .. هذا اللغز الزنجي يزوى بسرعة مذهلة ، ومن
الحكمة البحث عن دم آخر طازج يصبح فيه

وجاءته الفرصة بسرعة يوم شعر بذلك المحقق يخترق عروق الفتى .. إن هذا الذي يحقن ليس دواء على الإطلاق أو هو دواء لكنه ضار .. هذه المادة المخدرة تتسرب في عروق الزنجى الذي لم يرد أن يتخلى عن لقائه بفيه المحشوة بالمخدرات وهو يأخذ الحقنة .. فقط ضغط عليها بأسنانه وغمغم :

« يا رجل .. أنا (مستول) .. Man I, am Stoned »

لسبب ما يصر هؤلاء على مناداتهم بـ (يا رجل) .. لكن ليس هذا وقت الملاحظة اللغوية .. ما يجب قوله هنا هو إن الأبرة تتوث بدم الفتى .. وشعر بلته يسحب ببطء خارجاً من عروق الفتى ليوضع على منضدة ..

وترتفع موسيقا (الهيفى ميتال Heavy Metal) أو (الديث ميتال Death Metal) التى يعشقها هؤلاء الفتية .. المطرب يترنم بكلمات رقيقة عن : أريد أن ينتصر الشيطان .. أريد أن أرى جثث الأطفال المحترقة تكسو الحقول . أريد أن يبدأ عصر الكراهية ..

إنها ثلاثية (مخدرات - جنس - روك أند رول) التى يزدهر فيها المرض بحق ..

إنَّ المحقق لم يفرغ بعد .. ما زال هناك الكثير بداخله ،

وقد راح يسميخ فى السائل ، وسره أن له زملاء عمل فى الداخل .. التهاب الكبد (C) زميل لفاضل حقاً ، وبينهما زمالة قائمة على الاحترام المتبادل .. التهاب الكبد (G) كذلك من الوجوه الجديدة التى لن يعرف أحد عنها شيئاً إلا فى تسعينات القرن العشرين ..

الآن تمسك بالمحقن يد أخرى ، وتتجه به إلى عروى شاب زلجى آخر يريد أن (يعلى مزاجه Gettin'High) كما يقول .. تلمس الإبرة الوريد البارز فى الذراع المعروقة ، يتحرك ليفرغ محتوياته فى الوريد .. الآن وجد نفسه فى عالم جديد يد بالاحتمالات ..

راح بفتش وسط كريات الدم عن هدفه .. إنه يبقى خلايا معينة . خلايا يطلقون عليها اسم CD4 .. هذه الخلايا يوجد فيها جزء يحبه .. هذا هو مكانه . موطن قدمه .. البوابة التى يدخل عن طريقها ..

أخيراً وجد الموضوع .. إنه - كأي لص بشرى - يحمل (طفاشة) .. وهذه الطفاشة هى نوع من البروتين سوف يطلق عليه علماء البيولوجيا الجزيئية اسم Gp120 يوماً ما .. به اخترق الخلية دون مقاومة ..

الآن يبدأ المرح

في عام 1981 بدأت السلطات الصحية في (سان فرانسيسكو) تلاحظ أشياء مريبة ..

ثمة زيادة واضحة في استهلاك عقار (بنتاميدين Pentamidine) .. وهو عقار ينذر أن يوصف ولا يذكره أحد ، لأنه يستعمل في علاج حالات نادرة من الأمراض الطفيلية ..

هذه هي قاعدة الإحصاء .. إنه ينحك نظرة شمولية من أعلى .. تصور أنك في الزحام ترى امرأة صلعاء . ثم بعد قليل تقابل أخرى .. لا تعرف أهمية الظاهرة أو خطورتها إلا حين تقف فوق بناية عالية وتتنظر لزحام الناس من تحت .. ماذا ؟ كل هذا العدد من النسوة الصلعوات ؟ إن هذا مريب ..

هكذا لم يلحظ أحد زيادة عدد من يستعملون عقار (بنتاميدين) إلا حين جلس أحدهم أمام الحاسب الآلي يراجع الأرقام .. في الوقت نفسه لوحظت زيادة غير طبيعية في حالات سرطان (كابوزي Kaposi) وهو سرطان منتشر في البلدان الاستوائية .. لا أحد يعرف أنه يداهم الناس في (سان فرانسيسكو) بهذه الكثافة ..

إن هذا مريب ..

وتجتمع المملطمة العلمية وتقرر دراسة الموضوع ..
الملاحظ أن الظاهرة تنتشر بين الشباب الرقيق مدمن
المخدرات في (سان فرانسيسكو) ..

الآن تكور عجلة البحث العلمي السريعة لتني لا تترك تفاصيل ..

هؤلاء الشباب أصيبوا بهذه الأمراض النادرة لأنهم فقدوا
للمناعة .. لأن جسدكم لم يعد يقاوم أى شيء .. فما معنى هذا ؟

في الولايات المتحدة كان البروفسور (جفو Gallo) يعمل
كالمحموم ، مع البروفسور (جاي ليفي Jay Levy) ، وفي
فرنسا كان البروفسور (مونتانييه Montagnier) يبحث مع
جهازه معهد (بليستير) .. وتقاربت العروس وراحت الهمسات
تنتقل ..

إن الأمر يتعلق بالمناعة .. بفقدان المناعة إذا شئنا للدقة ..

وكان علم المناعة حتى ذلك الحين علماً خامساً يسخر
منه الأطباء السريريون .. أطباء المسامع وجهاز الضغط ..
إن علماء المناعة كهنة يجلسون في مختبراتهم يريدون
كلنا لا يمكن فهمه أو تخيله .. الآن فقط أدرك الأطباء أن
هؤلاء الكهنة يعرفون حل اللغز .. وهرع الجميع إلى المعبد
يسألون هؤلاء الكهنة أن يعلموهم تلك الألفاظ الغامضة ..

وفي نفس الوقت تقريباً - أو هذا ما يقوله الأمريكيون
 للذين لا يقبلون فكرة أي تفوق فرنسي - أعلن للعلماء عن
 الفيروس الذي وجداء في دم المصابين بفقد المناعة ..
 فيروس جديد تماماً ينتمي لأسرة غريبة هي (الفيروسات
 القهقرية) .. واطلقوا عليه اسم (فيروس عوز المناعة
 البشرية) أو HIV ..

قالوا إن الفيروس يختلف عن المرض .. المرض الذي
 تتدهور فيه المناعة إلى أقصى حد ، ويصل المريض إلى
 مرحلة الإصابة بالذئب أو قرا اسمه مكتوباً - لو كن شيء
 كهذا ممكناً - ويكفي أن يمر جوار مريض بالبرد كي يصاب
 بالتهاب رئوي يؤدي بحياته ..

ولدت لفظة جديدة تصف المرض ، وسرعان ما صارت على كل
 لسان وفي كل جريدة .. لقد ولد تعبير (متلازمة فقدان المناعة
 المكتسبة) .. أو . Acquired Immunodeficiency Syndrome ..

أخذوا الحروف الأولى من العبارة فولدت لللفظة
 المرهوبة ..

الإيدز AIDS ..

3- وعكة صغيرة ..

فيما بعد عرفت كل تفاصيل القصة ، فلا تسألني من أين كل هذا .. إن ما سأحكيه الآن حدث منذ أشهر .. بينما كنت لنا في (كينيا) أمرح مع (الماساي) ..

كنت الدكتورة (سيمون موانيسار) - كما قلت لك - مولعة بالبشر .. إنها امرأة فرنسية بالغة التحول في الخامسة والأربعين من العمر .. لها شعر أسود قصير تقصه كالصبية ، وعينان سوداوان واسعتان تشغلان ثلاثة أرباع وجهها ، كأنهما ثقبان بطلان على روحها .. لهذا لم تستطع قط أن تكذب أو تخدع أحداً في حياتها حتى لو أرادت .. كن لها وجه رقيق نبيل يذكرك برسوم الرافائيليين .. ولم يكن أحد قادراً على إعطائها عمراً يزيد على الخمسة والعشرين عاماً ، ولو كان من سادة علم (الفيافة والعفاة) عند العرب القدامى ..

لم تنجب بعد ، وقد جربت كل شيء ممكن دون جدوى .. إن رحمها لا يحتفظ بالأجنة ، ويرغم كل المحاولات الهرمونية والجراحة التي مرت بها لم تستطع أن تلوز بنحة الأمومة

إن الأمومة بالنسبة للمرأة جزء من تحقيق كينيتها ذاته .. وهو أمر يختلف كثيراً عن الأبوة بالنسبة للرجل .. فالرجل - فعلاً - لا يلاحظ أطفاله ولا يحبهم إلا حين يعاملهم .. بينما الأم تهيم حباً برضيعها منذ يخرج إلى الحياة ملوثاً بالدم والمخاط .. الفتاة الصغيرة تقضى وقتها في بروفة طويلة للأمومة ، على غرار تمشيط دميته وتبديل كافولتها - لو كان أبوها ثرياً إلى حد شراء دمية بكافونة - بينما الطفل يطلق الرصاص كالأبله من مسدس قلين .. باختصار هي تتدرب على تحقيق ذاتها ، بينما هو يضيع وقتها في هراء لا أول له ولا آخر ..

وكان الزوج رجلاً لطيفاً بيتياً .. لكنه في الآونة الأخيرة يخرج كثيراً جداً ويعود في ساعة متأخرة ..

وبفكاهة الأنثى - مع الكثير من التحريات - عرفت (سيمون) أن الزوج يقضى سهرته في ناد صغير على أطراف (أنجاواتيرى) يؤمه بعض الأوروبيين .. ربما كانت سهرات بريلة وربما لم تكن . لكن انشغالها في العمل لم يتيح لها فرصة معرفة تفاصيل أكثر .. قدرت أنه على كل حال يفعل ما يفعله الطفل : يطلق الرصاص كالأبله من مسدس قلين ..

كانت تؤمن بحقيقة أن الاحتفاظ بزوجها يزداد صعوبة ..

فهي في نهاية رحلتها كاتشي شابة .. بينما هو يمر بأزمة منتصف العمر المعروفة .. لهذا قررت أن بعض الحرية له لن تؤذيه كثيراً ..

في تلك الليلة عاد للدار مبكراً ..

كانت الخادم الإفريقية قد اتصرفت من قليل .. والدكتورة جالسة أمام التلفزيون تشاهد فيلمًا سخيفًا على جهاز الفيديو .. ولاحظت أنه دخل في صمت ، فبرز رأسه وهو يمر أمام الشاشة .. ثم اتجه إلى غرفة النوم ..

حسن .. لم يكن هذا معتاداً . من المعتاد أن يجلس ويثرثر ويضحك قليلاً .. لكنها تفهم أن وجهه مسود وهو كظيم .. ثمة شيء ما خطأ ..

خاضت صوت التلفزيون ، وسأته بصوت عال :

- « هل أنت بخير ؟ »

- « نعم .. اعتقد هذا .. »

جاء صوته من غرفة النوم .. لكن كل شيء فيه يشي بأنه ليس بخير على الإطلاق ..

اتجهت إلى غرفة النوم ترى ما هنالك ، فأثار دهشتها

أنه يرقد على الفراش بكامل ثيابه ، وهي ثياب صيفية طبعاً
لأننا في (الكامبيرون) هنا .. لكنه قد فتح ستروته ليرشح
للجواء بلعس صدره ..

كان (لوى مولينسار) رجلاً في الخمسين من العمر
تقريباً .. بدأ الشعر يزول عن مقدمة رأسه وكون كرشنا
صغيراً يعتر به كثيراً ويحرص على تنميته أكثر . وبينوا في
كل لحظة كأنما يشعر بألم في معدته .. بالإضافة إلى عيبيه
(الفرنسيين) الصغيرتين جداً بالنسبة لوجهه .. هذا كله
يعطيه انطباعاً مروغاً حين يمرض ..

وضعت يدها على صدره فأدركت على الفور أن حرارته
مرتفعة قليلاً ..

- « أنت محموم ؟ »

- « متوعدك قليلاً .. هذه هي الكلمة الدقيقة .. »

- « هل ثمة أعراض أخرى ؟ » - وأشارت لحلقها - « حلق ؟ »

- وأشارت لصدرها - « سعال ؟ أي شيء ؟ »

تحسس حلقه قليلاً وقال في لا مبالاة :

- « صعوبة عابرة في البلع .. هذا لا شيء .. »

وكانت تعرف ككل طبيب موضوع فيروس الأربع والعشرين ساعة .. الفيروس الذى يظهر فجأة ويسبب المرض يوماً أو أقل ، ثم يذهب كما جاء دون أن يعرف أحد ماذا كان .. ودون أن يسبب أية مشاكل ..

لهذا اتجهت إلى خزنة الدواء فى الحمام وأخرجت قرصين من (الأسبيرين) الفوار .. ثم عادت له فنهض وتجرع الكوب وأطلق شهقة توحى بالارتياح .. وقال وهو يريح رأسه :

— « ساعش على الأرجح .. إن هذه الأشياء العابرة تحدث .. »

ابتسمت متفهمة ، وعادت تسأله :

— « لا عشاء هذه الليلة ؟ »

— « لا لا عشاء من فضلك .. فقط أرغب فى النوم .. »

وأغمض عينيه على الفور ، وغاب لى نعام عميق .
لهذا قررت أن تقوم بما تقوم به زوجة محبة عادية ،
وشرعت تستزع عنه الحذاءين وبصعوبة بدلت ثيابه . ثم
أغلقت النور وجلست تتابع التلفزيون ..

وغداً يوم آخر ..

لكن الأمور لم تتحسن كثيراً في اليوم التالي ..

في الصباح عرفت أنه سيظل في الدار . لا يمكنها أن تقول إنه مريض لكنه بالفعل ليس على ما يرام . وقررت أن الوقت قد حان لإعطائه علاجاً إمبريقياً على طريقة الأطباء المعهودة .. يأخذون فرصين من أية عينة يجدونها لديهم في لحظة ، ثم ينسون الأمر بالكامل .. لهذا تتفاقم أمراضهم بسبب يقينهم الخاطئ أنهم وراء المدفع ولا يمكن أن يكونوا أمامه .. وكان المرض زميل عمل معهم يحترمهم ولا يمكن أن يؤذيهم مهما بلغت مضايقاته ..

هكذا بدأت بإعطائه عقراً محلياً هو (الأموكسيسيلين) .. وقدرت أنه لو كانت هناك عدوى بكتيرية ما فليسوف يقضى عليها هذا المضاد الحيوى الخفيف ..

قال وهو يتحسس عنقه :

« اعتقد أنك محقة بصدد الحلق .. هناك .. تلك العقد

هنا .. »

مدت أناملها تتحسس ماتحت ذقنه وخلف زاوية فكه .. حقاً كانت هناك عقد لمفاوية صغيرة .. لا يمكن أن تعتبرها مخيفة أو محترمة .. إن أعناق الرجال تعج بهذه العقد اللمفاوية من أثر الحنكة ..

قالت له وهي تتأهب للذهاب للعمل :

- « حاول أن تتسى .. »

وكانت السيارة الجيب الخاصة بوحدة (سافاري)
تنتظرها خارج (الفيلا) ، وهذه تأخذها والدكتور (دولا
لويولو) والطبيب الشابين إلى نهاية (سافاري) .. إن
الرحلة على القدمين لا تريد على خمس دقائق تتحول إلى
ثوان مع السيارة ..

وهكذا بدأت الدكتورة عملها في قسم أمراض العيون ،
مع العجوز الأسباني (شافيز) .. ومع (إبراهيم ليلى)
الذي يلعب في عالمي دور شرير الفيلم ..

من المصادفات الغريبة في هذا اليوم بالذات ، أن الحديث
دار عن زوجها عرضاً ..

لقد سألها البروفيسور الأسباني عنه .. فقالت إنه على
ما يرام ..

- « سمعت أنه مولع بالتردد على (مولانجا) .. »

قالها بلهجة ذات معنى فلم تفهم .. لكنها خجلت من أن
تبدو آخر من يعلم .. لذا هزت رأسها بمعنى أن المعلومة
قديمة .. (ثم ماذا بعد ؟) ..

أُرفف بلسماً :

- « (مولانجا) هو نلاد صغير محلى .. إن أوردبيين كثيرين
يجتمعون هناك .. هناك الكثير من الشراب والرقص .. ربما
المخدرات كذلك .. وإبنى لأصحك : الرجال أطفال كبار
يسهل أن تنزلق أقدامهم فى الشرك .. »

ثم الصلى نفته بالمصباح الشقى - بكسر الثمين وتشديد
اللقاف - ليواجه عيني المريض للجاس من التحية الأخرى ،
وقال :

- « ليس مسيو (مولنسا) طبعاً .. فهو ليس من هذا
الطرز .. لكن كل النساء يحسبن أزواجهن ليسوا من هذا
الطرز .. »

قالت فى كبرياء وهى تغادر العيادة :

- « وهن دائماً على حق ! »

وفكرت فى أن البروفسور (شافيز) طبيب عظيم .. لكن
اللياقة تنقصه .. كيف سمح لنفسه بالتدخل فى شئونها بهذا
الشكل ؟ هؤلاء العلماء الكبار يتهمكون بالعلم إلى حد أنهم
يصيرون أطفالاً شديدي الخرق حين يتعاملون مع المجتمع ..

(مولانجا) .. (مولانجا) ..

لكنها كانت تعرف أن هذا الهاجس سيلاحقها طويلاً ..
هذه قطرة شريرة من السم تسقط في الجدول الرائق
لثقتها بزوجها .. بل جدول ثقتها بنفسها ..

عادت للدار عصراً ، وألقت الباب ..
- « (لوى لوى) هل أنت هنا ؟ »
جاء صوته من غرفة النوم مما دلها على أنه مازال
مريضاً ..

اتجهت إلى هناك وألقت نظرة على جسده الرقيق منهكاً
في الفراش ، في الإضاءة المعتمة للغرفة .. كان عارى
الجذع وقد فرد ذراعيه إلى جانبه ، بينما كرّسه الصغير
يعلو ويهبط مع نفسه ..

- « هل أنت أفضل ؟ »

- « لا .. هناك جديد .. »

أزاحت الستائر عن النافذة فأركت لملاً هو عارى
الجذع .. لقد كان هناك طلع جلدى يكسو صدره وظهره ..
طلع بقى وحببى فى بعض المواضع وإن ابتعد عن
ذراعيه وقدميه ..

راحت تتلخص الطلح ، ولم تكن خبيرة بالأمراض الجلدية
لكن الطلح لم يبد لها من الطراز المصاحب للحساسية .. ثم
إبه تعاطى (الأسبيرين) و (الأموكسيسيلين) من قبل ..

- « ما هذا ؟ »

قالت وهي تفرك الطلح بظفرها :

- « لا أعرف .. »

طلح في ضيق وقال :

- « تزوجت طبيبة .. لكنى منذ تزوجتك لا ألقى إلا إجابة
واحدة على كل شيء : لا أعرف .. »

- « وما ذنبى إذا كنت مصراً على أن تظل عيناك كعيني
صقر ؟ قل لى غذا إتك لا تنصر أو إن هناك سحابة بيضاء
تجيب الرؤية ، وسوف تعرف وقتها أتنى لم أحصل على
شهادتى بالمراسلة .. »

- « سأنتظر ذلك اليوم بشوق .. »

فكرت قليلاً ثم سألته بشكل عملى :

- « هل تذهب إلى الوحدة ليلخصك طبيب أمراض جلدية ؟ »

- « لا .. ما زلت مؤمناً بأن هذه وعكة ستزول سريعاً .. »

بعد يومين انتهت القصة ..

لقد زالت الحمى ، وعاد يمزح ويمزح ويأكل كدودة
الغزل ..

زال الطلح الجدى وتلاشت العقد اللاملاوية ..

حقاً كان هذا فيروس الأربع والعشرين ساعة كما توقعنا
بالضبط .. صحيح أن الأربع والعشرين ساعة طالت قليلاً
لكن من قال إن الفيروسات تملك ساعة يد ؟ ولو كانت تملك
فمن قال إنها ساعة مضبوطة ؟

أروع ما فى هذه الومكات البسيطة هو ثقتهك التامة فى
أنها ستنتهى حتماً ..

★ ★ ★

4 - نجاح مضطرب ..

هو الآن داخل الخلية CD4 ..

إنه يشعر برضا عن النفس لأنه لم يعد (ذلك الوغد المجهول) .. وإنما صار له اسم مهيب محترم .. HIV ..
ما أجمله من اسم ! له رنين مخيف يوحى بالرهبة والتوجس ..

إنه أشهر اسم في العالم الآن .. لا بد من أن تجده في كل جريدة أو مجلة .. من من زعماء العالم ، ومن من ممثلي (هوليوود) يزعم الشيء ذاته ؟

بل إن بعض المشاهير الذين غاب عنهم الضوء ، عادوا إليه بقوة حين أصابهم هذا الفيروس .. ألم يعد اسم الممثل (روك هلسون) يحتل كل وسائل الإعلام ؟ ألم تتسابق الصحف في ترشيح الضحية القادمة لهذا القاتل الذي لا يمزح ؟ هل هو (مايكل جاكسون) أم (مادونا) أم (بوي جورج) ؟

هذه الخلية ذات أهمية استراتيجية قصوى في الجهاز المناعي للجسم .. إنها تنتمي لمجموعة من الخلايا يقال لها (الخلايا المقاتلة) .. وهي أنواع شتى ، لكن هذه الخلية بالذات من طراز اسمه (الخلايا المساعدة) ..

الآن يتكاثر ..

هو يعرف كيف يفعل هذا .. إن الفيروس يستغل الخلية بشكل غير إنسانى .. يستخدمها كمصنع لحصله الخالص .. يستخدم كل مواردها وثرواتها الطبيعية ليصنع ما يلزمه هو .. وهكذا تتحول الخلية إلى مصنع لا يخدم نفسه .. لكن يخدم الغازى ..

هذه الطريقة التى يصنع بها هذا الفيروس للفريد نسخاً عدة منه تسمى (الاستنساخ القهقرى) .. ولهذا يطلق على هذه الفيروسات اسم (الفيروسات القهقرية Retroviruses) ..

الآن هناك ملايين منه ..

موارد الخلية قد انتهت ..

لم تعد لها جدوى ..

إنها تموت والفيروسات الوليدة تغادرها بحثاً عن خلايا أخرى ..

إنها تقابل بعض الزملاء فى أثناء سباحتها فى الدم .. زملاء دخلوا بنفس الطريقة تقريباً .. تقابل فيروس التهاب الكبد C الخبيث المراوغ ، وهو يتجه نحو الكبد لينسف خلاياه نسفاً ، وربما ليبدأ بذور السرطان هناك . تقابل باكثيريا تسبح بطريقة لونية رشيقة .. إنها باكثيريا الزهرى ذاهبة للبحث عن المتاعب فى الجهاز العصبى أو الدورى أو التناسلى ..

ربما تبادل هؤلاء الزملاء تحية هز الرأس واتطلق كل منهم نحو هدفه .. هم يعرفون أن نجاحهم يعطى لمارهم فى الوقت ذاته .. معنى نجاحهم أنهم سيقضون على الكائن الذى يمنحهم المأوى .. وهذا يعنى أن عليهم أن يجدوا أول فرصة للرحيل إلى جسد آخر ..

حتى ذلك الحين هناك الكثير من المرح ..

كان الزوجى الجديد يمارس الآن حياته بشكل شبه طبيعى ..
لقد مر أسبوعان منذ أخذ تلك الحقنة الملونة ..

فقط هو يمر بوعكة بسيطة جداً .. وعكة لا تختلف عن نزلات البرد التى تصلب بها مراراً كل عام .. هناك سخونة .. التهاب فى الحلق .. طفح بسيط فى الجلد (وهذا الاختلاف الوحيد) وربما بعض العقد اللمفاوية البسيطة فى جسده ..

إن الجسم يحاول مقاومة هذا الدخيل .. يحاول فهم ما يحدث .. هذه هى (المتلازمة القهقرية الحادة) ..

لكن الأمور تمر على ما يرام ، وسرعان ما يستعيد الفتى عافيته ..

وهو ذا يجول فى الشوارع بحثًا عن مزيد من اللهو ..
إنه عابث لا يعرف بالكرثة التى يحملها جسده ، والتى
تمارس عملها بنشاط ممتاز ..

لقد منحه المرض هدنة لا بأس بها مدتها سبعة أيام ..
ربما عشرة .. سيكون الفتى عندها قد نسى كل شيء عن
الوعكة العابرة التى مرت به .. لكن الفيروس لا ينسى ..

لسوف يعود ليعلن عن نفسه حين ينخفض عدد الخلايا
عن المائتين .. عندها يعلن عن نفسه بشراسة ..

أما الآن ف لديه عمل كثير يقوم به .. إنه أحيانًا يدمر
الخلية وحدها ، وأحيانًا يدمر مجموعة من الخلايا فى آن
واحد ويجعلها تلتحم فى بعضها على شكل مدمج .. هذه
تقنية يعرض بها نقص عدد قواته .. هذا المدمج يجذب إليه
المزيد من خلايا المناعة ..

وفى الآن ذاته يجرب حظه مع ضحايا آخرين .. إن الفتى
ما زال يمارس حياة الليل ، هناك الكثير من المخدرات
والمحلقن التى تنفوس فى عروق الرئتين .. ذلت مرة تراهن
مع أصدقائه على أنه سيتبرع بدمه .. لقد اتهموه بأنه
(دجاجة) جبانة فقرر على سبيل المرح أن يتبرع ببعض

دمه .. وفي هذا الوقت لم يكن أحد يفتش عن الفيروس في
دماء المتبرعين .. كيف تفتش عن شيء لا تعرف أنه
موجود ؟ يجب أن نقول هنا إن كل من تلقى دما بين عامي
1878 و1985 هو مريض بالفيروس إلى أن يثبت العكس ..
والسبب هو أن الفيروس كان موجودا بوفرة لكن أحدا لم
يكن يبحث عنه ..

هذا الكيس المليء بالدم راح يتقل من يد ليد ..

أخيرا وجد طريقه إلى عروقي مدير مبيعات في شركة
عطور ، لقد انقلبت سيارته على الطريق وتلف كثيرا ..
وكان لابد من نقل دم له ، لذا أحضروا له هذا الكيس من
نفس الفصيلة .

وقال الطبيب الشاب وهو يفتح الصمام ليتدفق الدم في
عروقي الجريح :

- « لقد وجدنا قصيبتك دون جهد .. أنت إنسان محظوظ ..
فعلا محظوظ !! »

ربما وصف المرض في (سان فرانسيسكو) أول مرة ،
لكن من المؤكد أنه ظهر في إفريقيا أولاً .. ومتى وأين ؟

لا أحد يعرف .. لكن الحقيقة المفزعة هي أن إفريقيا التي تمثل عشر سكان العالم تمثل ستة أعشار حالات المرض في العالم كله .. وفيما بعد حين عرف العالم كيف يوقف المرض إلى حد ما ، فإن القارة الأفقر والأكثر تخلفاً في العالم ، ظلت هي الموطن الأساسي لمرض الإيدز ، على حين تعلم الغرب كيف يتقى الوباء .. وأعلن بثقة : « إن الإيدز مرض قابل للمنع » .. وعلى عكس ما نعتقد فإن أمريكا الشمالية لا تشكل أكثر من خمس حالات المرض في العالم ..

هذا منطقي .. إن الأدوية باهظة الثمن لا تقدر عليها إفريقيا ، والتعليمات الصحية لا تلقى لئلاً صاغية ، وبعض هؤلاء القوم يحبون حياة بلا ضوابط كأنهم القردة فوق الأشجار ..

كان الفيروس يصرح في دم ضحيته الجديدة وضحايا آخرين ..

كان صامتاً خبيثاً لا يعلن عن نفسه ، على عكس بكتيريا الزهري البلهاء الساذجة التي تفضح نفسها من البداية ، وتجعل المريض يهرع مذعوراً إلى أقرب طبيب .. البكتيريا الهشة التي تقتلها بضع جرعات من البنسلين ..

إن الفيروس واهن ضعيف .. هو يعرف هذا .. إنه
لا يعيش طويلاً خارج الجسم وتفتك به المظهرات بسرعة ..
لا تنقله الحشرات مثلما تنقل الملاريا ، برغم أن أحداً
لا يعرف سر ذلك .. لابد من جرعات عالية منه كي يصيب
المريض ..

هو يعرف أنه واهن ضعيف ، لذا يلجأ إلى الحيلة المثلى
للضعفاء . الخبث .. والمزيد من الخبث .. دُعاء البراءة ..
لهذا لا يفتش المريض عنه .. ولا يعرف عنه شيئاً ..
عندما يعتقد أنه نجا وأن الأمر انتهى .. عندها فقط يعلن
الفيروس عن نفسه ..

5- التقرير ..

الآن تسير الحياة بشكل منتظم ..

صار زوجها بيتياً من جديد .. وهذا لا ينفي أنه اجتماعي كذلك ..

لقد جلت أنا و(برنات) عائدتين من (كينيا) لنسكن جوارهما في تلك الفيلا الصغيرة ، وكان هذا غاية المراد ..
لقد قررا أن يغيا بنا بمزيج من واجب الجيرة وعاطفة البتوة المفتقدة ..

لقد خرجت د . (سيمون) من دارها في صباح المظلة لتجدي و(برنات) منهنكين في عمل عجيب نوعاً ، هو قطع الأعشاب في الحديقة بسكين عملاقة كأننا نستكشف أدغال الأمازون .. وكانت هناك عشرات من أكياس القمامة امتلأت بأشياء يجب التخلص منها .. هكذا قررت أن أوقفت قد حان للتدخل والمساعدة ، وارتدت ثياباً تناسب هذا العمل ، بينما قرر زوجها أن ينقل الأكياس معي خارج الفيلا ..

وهكذا تم التعرف .. طبعاً لا توجد مشكلة لأن د . (سيمون) تعرفني و(ماجي) أعمق بطبيعة الحال .. الأخيرة موجودة

من قبل أن أتى .. الأخيرة كندية فراتكلونية الثقافة .. ثم
إنها - لو كنت سريع الملاحظة - امرأة -

أما أنا فقد صادقت الزوج .. لم يبد لي رجلاً مخيفاً .. بل
هو خنوم بالفعل .. على كل حال لم ألق رئيسين أو بلجيكيين
سويين منذ توغلت في إفريقيا لكنى لن أنخدع .. لا يوجد
شعب من الملائكة ، فلابد أن الذين كانوا يندسون الأثر
ويذبحون الأطفال في الكونغو ويقتلون الثوار في الجزائر لم
يتوا مع هؤلاء . إنهم في بلادهم أو لم يصحوا مبكراً للحاق
بالبطائرة .. وعلى كل حال - برغم منى للسياسة الأمريكية
عامة - فباتنى أحب (آرثر شيلبي) .. وما زلت أجد أن كل
أمريكى جذاب جداً لو تعاملت معه بشكل منفرد .. هذا يؤكد
القاعدة ولا ينفيها ..

الشيء الوحيد الذى ضايقنى هو أنهما اجتماعيان جداً .. لست
نقاً متوحداً أو سكة (المقاتل السياسى) لكنى أحب أن أترك
وشائى بعض الوقت ، لكن هذين قررا أن العناية بنا واجب .

وفي تلك اليوم الذى تبدأ فيه علاقتى بالقصة كنت فى الفيلا
وحدى ، بعد عودتى من العمل .. إن عمل (برنات) سيتم
إلى الليل على الأرجح ، وقد قررت أن أذهب إليها حين
تغرب الشمس لأرى ما قد تحتاج إليه ..

هنا سمعت دقات على الباب ففتحتُه لأجد الزوج الفرنسي ،
وكان يرتدى سترة تكريب وذقنه غير حليقة ..

- « هل أنت وحدك ؟ »

هزئت رأسي وأنا أتوقع هجمة المودة القادمة ..

- « لم لا تأتي عندي لنمضي بعض الوقت ؟ لا أعتقد أنك
ستظفر ببعض الطعام إلا ليلاً .. »

هزئت رأسي .. الحقيقة أن هذه هي الحقيقة بالضبط ..
وكنا في تلك المرحلة التي يمر بها كل من ينتقل إلى بيت
آخر .. في كل لحظة تكتشف تفصيل جديدة .. ما هذا ؟ ألم
نحضر ثقاباً ؟ ما هذا ؟ لا يوجد معجون أسنان .. ماذا ؟
لا يوجد شاي ؟ أين ذهبت تلك المكينة ؟ إلخ ..

هكذا أغلقت الباب ولحقت به إلى الفيلا المجاورة ..

طبعاً كانت بحالة أفضل بكثير .. لبسا فاحشي الثراء لكن
حياتهما مريحة جميلة .. هناك ذوق راق في كل مكان ..
وبصعوبة يمكن أن تتخيل أنك في إفريقيا على حدود الدغل ..

قال لي باسمًا :

- « هل تحب أن تجلس لمشاهد التلفزيون أم تأتي معي
للمطبخ أثناء إعداد المكرونة ؟ »

قلت له إننى أفضل بالتأكد أن أذهب معه إلى المطبخ ..

وهكذا وضع مريولة الطهى ، ووقفت معه وسط المطبخ الذى أعد على طراز حديث ليكون مركز البيت .. وبدأ تقطيع البصل ، وقال لى وهو يحاول منع المخاط من أن يصل عن طريق الاستنشاق :

- « إنها طريقة إيطالية معتزة .. لكنى سأستقنى عن بعض المكونات من أجلك .. »

فى الغالب يتحدث عن النبيذ أو شحم الخنزير .. ولما رأيت حالته تتدهور أخذت منه السكين ورحت أقطع البصل بتلسى .. اتجه فى حماسة ليفتح علبة تونة وعلبة من شرائح الزيتون .. الحلى أن نعاين بدأ يصل .. لم أجرب قط للمكرونة بالتونة والزيتون لكنها لا تبدو فكرة سيئة إلى هذا الحد ..

فجأة سألتنى سزالاً مباغتاً لم أتوقعه :

- « لماذا يفقد المرء وزناً وترتفع حرارته دون تفسير ؟ »

لا أعرف .. ما علاقة هذا بالمكرونة .. لكنى على كل حال أعرف عادة الناس فى التلفزيون عن أية شكوى إذا كانوا يحدثون طبيباً .. ولماذا لا يسأل زوجته ؟

قلت وأنا في أسوأ حال من الدموع :

- « شن ا يحدث هذا مع كل الحميات تقريباً .. إن ارتفاع الحرارة هو عملية حرق .. شن ! لمخزون الجسد من السعرات .. يجب أن تعلق أهمية خاصة على الذرن .. وطبعاً ثلاثية فقدان الوزن والحمى والإسهال بلا تفسير على مدى شهر هي جزء من .. شن ! من تعريف منظمة الصحة العالمية WHO لمرض الإيدز .. لماذا تسأل ؟ شن ا »

لم ألاحظ أنه توقف عن إفراغ ما في يده في الصحن ..

لم ألاحظ أن العضلة في صدغه انقبضت ..

لم ألاحظ أنه نظر لظهري نظرة طويلة حادة ..

فقط قال بعد هنيهة من الصمت :

- « أسأل عن صديق لى .. هل انتهيت من البصل ؟ هذا هو أعقد جزء في العملية .. »

بعد قليل كنا جالسين أمام التلفزيون وفي يد كل منا طبق من المكرونة الساخنة يتصاعد منه البخار ..

سأله وأنا ألق المكرونة الطويلة حول الشوكة :

- « واضح أنك تجيد أعمال البيت .. »

- « أنا سيدة الدار هنا . إتنى لا أعمل كل يوم .. أحياتنا
أمضى أسبوعًا كاملاً بلا عمل حتى يأتيني استدعاء إلى
(ياوندى) .. بينما زوجتى تخرج وتعود فى مواعيد
منتظمة .. دعك من الاستدعاءات الليلية .. »

- « وهل تحب (أنجاواندى) ؟ »

- « ليس إلى هذا الحد .. اعتدت حياة المدن .. لكن زوجتى
مسرورة بالعمل هنا . تشعر بأنها .. »

(ألبرت شفايتزر) .. هذا الرمز الذى يعتقه كل طبيب
متحمس فى إفريقيا .. الناس لا تعمل فى الأدغال حيث
الموت وراء كل غصن شجرة ، إلا لأنها تربح كثيراً جداً أو
لأنها تريد تحقيق رسالة ما .. ثمة سبب ثالث لا أعرف
واحداً جاء من أجله ما عدى : الرغبة فى الابتعاد .. البحث
عن الذات بعيداً عن مسقط رأس هذه الذات ..

(ذهب لبحث عن أمريكا فوجد نفسه) .. هذا هو شعار
فيلم (يرقص مع الذئب Dances With Wolves) الذى لعب
فيه (كيفين كوستنر) دور جندي أمريكي سئم الحرب
الأهلية ، فقرر أن يذهب إلى مكان منعزل ناء ، وأن يراقب
الهنود الحمر .. وهنا فقط وجد الأصدقاء ووجد الحب ..
وجد نفسه . هذا الفيلم لم يفارق مخيلتى قط ..

سمعنا الباب يفتح ، وجاءت الزوجة .. فنهضت في هرج
فقد كنت جالسا على راحتي وقد تثبت قلمي على المقعد في
وضع القرفصاء ..

قالت في مرح وهي تضع ما معها من أوراق على الأريكة :
- « ١ . (عبد العظيم) هنا ؟ أرجو أن تكونا قضيتما وقتا
طيبا ؟ »

- « المكرونة كانت رائعة .. إن هذه فكرتي عن الوقت
الطيب على كل حال .. »

ثم هزرت رأسي وأعلنت أن الوقت قد حان للانصراف ..
عندنا في مصر مثل يقول : (الضيف المجنون .. ياكل
ويقوم) .. لكنهما لا يعرفانه لحسن الحظ ..

- « اثنان ظريهان .. »

فكتها لنفسى وأنا أقطع الأمتار المعودة متجها إلى داري ..

★ ★ ★

بعد أسبوع :

نام (لوى) في وقت مبكر في أثناء قراءته لـ (راسين
Racine) كعاقبة قبل النوم ..

كانت هي جالسة جواره في الفراش جوار الأهاجرة
المضاعة تطالع بعض دوريات أمراض العيون .. وقد
ابتسمت لرؤية وجهه الطفل الوداع وقد سقط تمامًا في لجة
الأحلام .. التفتت الكتاب ووضعته جانبًا وغطته بعناية ..
إن الليل بارد هذه الأيام وهذا شيء يصعب تخيله بالنسبة
لمن يجرب جو النهار ..

كانت تحبه حقًا .. وحتى اليوم ما زالت تحبه .. وقد
جربته أكثر من مرة وتعرف جيدًا أنه إنسان طيب .. له
أخطاؤه القليلة لكنه إنسان طيب في النهاية .. ثمة خيط واه
جداً بين الشيطان والطفل الذي يتشيطان .. نمت الأول
ونلغنه ونستعيز بالله منه ، ونوبخ الثاني لكننا في نهاية
اليوم نلثم جبهته وهو نائم ونضعه في رفق .. و(لوى)
كان مجرد طفل شقي ..

كنت تعرف أنه قلق في الآونة الأخيرة .. لا تعرف
السبب لكنه لا يتعلق بذلك النداء المشنوم . هو لم يعد
يفارق الدار من زمن .. هذا لغز آخر لا تعرفه .. لكنه
سيتكلم .. حتمًا سيتكلم ..

راحت تطالع الأوراق محاولة التركيز ..

ثم تذكرت أنها غير كاملة .. هناك عدد من إحدى
المجلات يبدو أنها تسيته في غرفة المعيشة ..

نهضت إلى هناك في رفقى ، وبحثت فوجدت أن زوجها
وضع كل الأوراق والصحف في المكتبة الصغيرة المغلقة
على الجدار ..

تناولت الأوراق وراحت تفتش فيها .. ما هذا ؟

أضاعت مصباح النيون للسقف فوق المكتبة لترى الحصل ..
مظروف صغير عليه شعار مستشفى في (ياوندى) ،
وبحمل اسم زوجها :

السيد (نوى مولينسار) ..

فتحت المظروف لتجد ورقة واحدة يبدو أنها تخص
مختبراً ما .. وكان التقرير يقول :

اختبار الجسم المضاد لـ HIV باستخدام إيليزا : موجب

اختبار البقعة الغربية Western Blot : موجب

يرجى الاتصال بمختبرات وزارة الصحة في (ياوندى)

لاستكمال الفحوص على وجه السرعة .

وبعقل مشوش لا يعي ما يفعل ، نقلت المكتوب في الورقة
إلى وريقة صغيرة ونسّتها في حقيبتها ..
ثم عادت إلى الفراش ..
لكنها لم تتم ..

★ ★ ★

حين دخلت د . (سيمون) إلى المختبر في الصباح كانت
(هيلجا) الألمانية الشغواء منهكة في افتراسي كالعادة ..
من سوء حظي أنني وقعت في قبضتها ولمدة شهر كامل ..
وهي أسوأ بدلية لودتس (سافاري) حتى إن
(كليمنجارو) لم يعد يبدو بهذا السوء ..

كانت منهكة في توبيخى على شيء ما ، ربما لأننى
مازلت حياً .. وكنت أنا قد صرت خبيراً بهذه المرأة
وأعرف كيف أثير جنونها دون خطأ واحد تمسكه على ..

حين دخلت د . (سيمون) ورأيتنى - أنا جارها - امتنع
وجهها قليلاً وارتمت .. وكذا امتنعت أنا لأننى لا أحب أن
يرانى أحد أثناء عملية الافتراس .. افتراسي أنا ..

حيثلى بعصبية وبهزة رأس ، بينما حبّت د . (هيلجا)
بحرارة أكثر ..

قالت (هيلجا) وهي تفرغ أنبوب اختبار في الحوض :

- « إن هذا الشاب يريد قتلني .. لا يستطيع أبداً تعريض خلايا سرطان الدم .. وما أكثر سرطان الدم لدى هؤلاء الأطفال الأفارقة .. إلهم مصابون بسرطان الدم حين لا يجدون شيئاً أفضل يفعلونه .. »

قالت لها د . (سيمون) في كياسة :

- « هل لي أن أسألك عن شيء على انفراد .. »

- « بالطبع أيتها العزيزة .. إن مكتبي يصلح .. »

واقفاتها إلى مكتبها الذي أحيط بالزجاج كي تراقب كل دقيقة في المختبر .. ولم تسس أن تنظر لي نظرة نارية من طراز (ساعود - فلا - تفرح) .. ولربما هي من طراز (أنا - لم - أنته - منك - بعد) ..

حين لختلت المرأتان بنفسيهما ، قالت (سيمون) وهي تخرج وريقة من جيبها :

- « ما معنى هذه الأبحاث ؟ »

نزع (هيلجا) قلبيها ، ووضعت عوينتها لتري أفضل ، ونظرت إلى الورقة المكتوبة بخط اليد سريعاً ، ثم قالت وهي تعيدها إلى (سيمون) :

- « هذه عدوى بفيروس HIV بدون شك .. هل هو مريض عندك ؟ »

- « نعم .. نعم .. هل تضمن أنها حالة إيدز ؟ »

ضحكت (هيلجا) في قسوة وقالت :

- « ما بك يا دكتورة ؟ هل نسيت الطب فجأة ؟ »

بارتباك قالت (سيمون) :

- « فقط أريد أن أتأكد .. »

والحقيقة أنها كانت تعرف ما يعنيه هذا طبعا ، لكنها لم تملك الجرأة قط كي تعلنه لنفسها .. كانت تأمل في وجود ثغرة ما .. ثغرة واحدة ..

قالت (هيلجا) وهي تسترخي في مقعدها كما يفعل التجار في وكالة البلح (كلما رأيتهما جالسة شعرت بأن على أن أصفق لأطلب لها شايًا وحجرين من الدخان) :

- « هذه عدوى بفيروس HIV لكنها ليست حالة إيدز ..

فقط يمكن أن نصفها بأنها حالة إيدز لو هبطت خلايا CD4 عن مائتي خلية ، وبدأت العدوى الانتهازية .. بمعنى آخر هذه المعلومات ناقصة .. »

ثم بحثت عن تشبيه يوضح الصورة أكثر فوجدت واحداً :

- « إن امتلاء رأسك بالقمل لا يعنى أنك مصابة بالفيروس .. »

وراق لها التشبيه (النكى) فراححت تضحك حتى دمعت
عينها .. فسألتها (سيمون) انتى لم تحب الدعابة كثيراً :

- « وما هى احتمالات أن يتحول إلى (إيلز) ؟ »

- « هذا يتوقف .. لكن عدداً كبيراً من الحالات يتحول إلى

إيلز صريح خلال خمس إلى عشر سنوات .. حوالى للنصف .. »

من جديد تداعب (سيمون) الأمل محاولة أن تمسك به :

- « لكن .. اختبار إلزا هذا .. سمعت أنه يخطئ غالباً .. »

- « نعم .. يعطى نتائج موجبة زائفة .. إن 29 من كل

30 حالة موجبة تكون زائفة .. تصورى هذا ! هناك واحد

فقط بين الثلاثين يتضح أنه مصاب بالمرض فعلاً .. »

الأمل ينمو ليتحول إلى شجرة مورقة :

- « إذن .. هذا التحليل مجرد هراء لا يؤتى به .. »

ولو أجريناها على كوب ماء لأثبت لنا أنه مصاب

بالفيروس .. »

فى قسوة قالت (هيلجا) :

- « تقريباً هو كذلك .. حين يكون موجباً نتحقق من الأمر ، وحين يكون سالباً فبتنا نستبعد الفيروس باطمئنان .. إنه لاختبار نفى جيد Good Negative لو كنت تلهمين ما أعنيه .. ولهذا تتأكد من التحليل الأول الموجب بالتحليل الثانى ؛ البقعة الغربية .. إنه يؤكد النتيجة .. هذا للمريض أجراها وبالنسالى هو بالفعل مصاب بفيروس HIV .. لا شك فى هذا .. »

عانت (سيمون) تكرر .. أسئلة كثيرة تصطرع فى ذهنها .. ولحظتها فقط تمنى لو كانت خبيرة فيروسات بدلاً من أمراض العيون ..

- « لنفرض أننى أصبت بوخزة إبرة منه .. هل أصاب بالعدوى ؟ »

- « فقط ثلاثة من كل ألف يصابون بالمرض بهذه الطريقة .. تحتاجين إلى قدر عال من النحس يا صغيرة .. لكن لا بد من فحص دمك بعناية لمعرفة هل تتلقين علاجاً أم لا .. منذ متى تلقيت للوخزة ؟ »

- « حوالى شهرين أو ثلاثة .. »

.. « لا بأس .. يمكن أن تكون الاختبارات ذات قيمة الآن .. »

فكرت (سيمون) قليلاً ثم نظرت حولها وقالت وهي تبتلع ريقها :

.. « هل يمكن إجراء اختبار لى ؟ أريد أن أطمئن .. »

هزت (هيلجا) رأسها .. فهي قد اعتادت هذه الأمور .. كل الأطباء مصابون ببارتوتيا الإيلز .. وفي كل يوم تقريباً يأتيها طبيب صاحب الوجه يسألها نفس الأسئلة وهو يهمس من حين لآخر : انتهى أمرى .. لنا بطة مينة ..

.. « سنجرى لك اختبار (إلزا) .. فإن كان سلبياً يمكنك تسيان الأمر .. أما إن كان موجباً فسنسوف نجرى المزيد من اختبارات التحقى من النتيجة .. »

وضغطت على الجرس ، فظهرت ممرضة آسيوية ترفع حاجبها علامة للتساؤل ، فقالت لها (هيلجا) :

.. « نريد أخذ صينة من دم الدكتور .. لا ليس أنت .. أريد الطبيب الشاب الملتحي .. فقد حان الوقت كي يتعلم شيئاً مفيداً .. »

6 - نهاية الرحلة ..

عامّة ليس HIV من الفيروسات سريعة الانتقال .. ولم يدرج قط في الأمن الحيوي الرابع .. بمعنى آخر يمكنك أن تأكل مع مريض الإيدز وتصافحه وتنام معه .. كل شيء جائز ما عدا أن تتعرض لأي إفرازات من إفرازاته وبصفة خاصة دمه .. حتى هذا الأخير يمكن التعامل معه ما دامت ليست في جسدك جروح ..

لهذا من حين لآخر تنتشر إشاعة عن انتقال الفيروس عن طريق أدوات طبيب أسنان ما .. الحقيقة أن هذا أندر من الندرة .. ويحتاج إلى قدر غير محتمل من سوء الحظ ..

الآن انخفض عدد خلايا CD4 إلى درجة كبيرة .. لأن الفيروس لم يضيع وقته ..

وكان الفتى الزنجرى يعيش حياته بالطول والعرض ، وقد نقل المرض إلى كثيرين .. لكنه لم يشعر بأنه مريض حتّى الإحسين وجد أن فمه يؤلمه عندما يأكل .. الطعام نفسه له طعم النوراتيوم لو كان لليوراتيوم طعم .. وجد مرآة مهشمة ففتح فاه أمامها ونظر :

.. « يا للعجب يا رجل .. هناك تلك القذارة على لساني ..
أرجو ألا يكون سرطاناً أو شيئاً من هذا القبيل .. »

قال صاحبه الآخر الذي يعلق قرطاً في أذنه اليسرى
والذي امتلأ جسده بالوشم :

.. « لنا لا يرى لأشياء يا رجل .. لا يوجد شيء واحد لعين
في فمك .. أنت حار كالشمس يا رجل .. »

لا يوجد خطأ مطبعي هنا .. فهم ينفون النفي في كلامهم
كثيراً للمزيد من النفي وليس الإثبات .. ليس هذا مدهشنا
فتحن نفعل هذا في العامية كثيراً ، حين نقول (ما عرفش
ولا واحد) مثلاً ..

لكن الغتي قلتي ..

بعد أسبوع بدأ يصاب بنوبات السعال تلك حرارته مرتفعة
نوعاً والسعال يمزق صدره في أثناء الليل ، ثم لم يلبث أن
أدرك أنه مريض ..

.. « أريد أن أجد طبيباً لعيناً يا رجل .. ليس معي (عجين) ..
لا يوجد (ظبي) واحد لعين .. »

من جديد لا يوجد خطأ مطبعي هنا .. العجين Dough هو
العمل كما نقول نحن (الخميرة) .. و (الظبي Buck) هو
الدولار كما نصف نحن الملايون جنيه بـ (الأرنب) ..

دعونا من المقارنات بين العاميات المختلفة ولانذهب معه إلى المستشفى ..

فحصه الأطباء طويلاً وأجروا أشعة على صدره .. قاموا بتحليل البصاق ، بل إنهم أدخلوا منظاراً إلى حنجرتهم وسكبوا سائلاً وشطفوه ..

ثم إنهم أعلنوا النتيجة . إنه مصاب بعدوى فطرية في فمه ، ومصاب بطفيل في رئته يدعى PCP .. هذا الطفيل من العلامات المميزة لفقدان المناعة لدى مرضى الإيدز .

هكذا دارت العجلة الشهيرة وأجريت كافة الاختبارات .. وفي النهاية عرف الفتى أنه مصاب بمرض الإيدز .. طاعون العصر ..

إن فيروس HIV نفسه لا يقتل ..

لكنه يعمل هنا عمل الخائن الذي يفتح أبواب المدينة الحصينة للغزاة . لقد أُلقيت الدفاعات كلها ، ثم ترك الأبواب لتفتحها فيروسات وبكتيريا وفطريات وديدان تعرف كيف تؤدي عملها ببراعة ..

إن الدورن ضيف مرغوب فيه هنا .. كذلك الـ PCP الذي تكلمنا عنه .. فيروس (الهربس) .. فطر (الكانديدا) ..

حتى الأورام .. إن أرقامًا كثيرة تولد في أجسادنا كل يوم .. كل منها يحمل نذير السرطان ، لكن جهازنا المناعي يلاحقها .. كلما وجد خلية سيئة الألب تحاول التمرد قام بالقضاء عليها .. الآن وقد غاب الجهاز المناعي تزداد ظاهرة الخلايا المتمردة . ويولد أكثر من سرطان أشهره سرطان (كابوزى) .. سرطان نادر غريب الأطوار لم نسمع عنه من قبل إلا في إفريقيا . اليوم هو يظهر في مرضى (الإيدز) ويكفى تشخيصه كى تشخص الإصابة بالإيدز ..

هذه المجموعة من الأمراض يطلق عليها العلماء اسم (الأخماج الانتهازية Opportunistic Infections) لأنها تنتهز فرصة انهيار دفاعات الجسم وتدخل ، وهى التى ما كانت لتجرو في ظروف أخرى .. إنها تنتهز الفرص بنذالة لا بأس بها ، مثل أى واحد منا .. لقد تعلمت البكتيريا أخلاق البشر وهذا شيء خطير لو أنك فكرت فيه ..

ومن يومها انتهى المرح ..

لقد صار الفتى الزوجى سقيمًا بالمعنى الحرفى للكلمة .. ثمة ترسبات من العقاقير يتعاطاها فى كل حين .. إنه معرض لكل أنواع الالتهاب الرئوى .. معرض لطفيليات

نادرة تسبب الإسهال .. إنه معرض لتفاقم أية عدوى سابقة
في جسده .. معرض لالتهاب سحالي من طراز نادر يأتيه
من الطيور ..

تقريباً لم يعد هناك جزء في جسده آمناً من فيروس
الإيدز أو من العدوى التي يسهل فيروس الإيدز دخولها ..
حتى العينين .. حتى الجهاز العصبي ..

وكان عليه أن يتعاطى عقاراً معيناً باهظ الثمن كل أربع
ساعات .. إنه لا يملك تأميناً صحياً والحكومة لا تعترف
بوجوده لكن هناك صناديق تتكفل بعلاج أمثاله ..

وقد أجروا معه تحقيقاً دقيقاً لمعرفة من اتصل بهم في
السنين الماضية .. طبقاً لهذا عمل شبه مستحيل بعد سبعة
أعوام من الرذيلة .. وحين تجد هؤلاء تجدهم قد اتصلوا
بآخرين ..

لقد مات مدير المبيعات من عامين ، وهو لغز من ألغاز
(الإيدز) .. لماذا قد يعيش ناسك المرض أطول ممن نقل إليه
المرض ؟ من الجلى أن هناك فصولاً من القصة لم تكتب بعد ..

لكن بالنسبة لصاحبنا كان عامان قد مرّا منذ التشخيص ..
وكان يتدهور بسرعة ..

فقد من وزنه عشرين كيلوجراماً .. حتى بدا كأنما هو
هيكل عظمي يلبس ثوباً جدياً واسعاً .. وفقد شعر رأسه ..
للخلاصة إن شيئاً واحداً لم يزد فيه إلا عمره الظاهري ..
هذا شيخ في الستين .. لن تصدق أنه في العشرين أبداً ..

وجاءت اللحظة المحتومة عندما أصابه إسهال عنيف ..

دخل الحمام المتسخ في دارهم عشرات المرات ، ثم أدرك
أن الأمر مستحيل وأن عليه أن يجد من يحمله إلى
المستشفى ..

وهناك أعطوه الكثير من المحاليل ، وأجروا تحليلاً سريعاً
للبرق .. إنه مصاب بطفيل شير هو (الكريبتوسبورديام) ..
وهو طفيل لا يستطيع أن يؤذيك .. لا يمكنه أن يسبب لك
مجرد مقص .. لكنه مع هذا الفتى الذي انعدمت مناعته
تماماً يصير قاتلاً .. والأهم أنه لا علاج له ما عدا عدة
تجارب لم تؤت أكلها بعد ..

استمر الإسهال ثلاثة أيام ، وبرغم المحاولات الضعيفة
لإنقاذه ، فإنه لم يصمد أكثر ..

وأخيراً توقف قلبه وشخصت عيناه ، وانضم إلى إحصائيات
الذين انتصر المرض عليهم .. إن الإيدز يريح دوماً في

انتهاء .. يخرج لملكه لترسنة الأطباء والأجهزة العلمية
والنقليات العالية التي تملكها أقوى وأغنى دولة في العلم ..
إنه ثمن أهم سبب للموت في العالم كله ، والسبب الأول
بوفاة تشهب بين الخمسة والعشرين والخمسة والأربعين ..

- « إنها حياة فلسية يا رجل .. فقط حاولت أن أضع ببعض
المرح .. »

★ ★ ★

7 - متى وأين وكيف ولماذا ؟

لم تتنفس د . (سيمون) للصعداء إلا حين ذهبت إلى المختبر في ذلك اليوم ..

قابلتها د . (هيلجا) بوجه كالح ينذر بالشؤم ، فسقط قلبها في قدمها .. لكن الطيبة الألمانية العجوز قالت لها بلهجة صارمة خالية من المودة :

- « سئى تماماً .. ماذا كنت تتوقعين ؟ »

كانت تبكى .. إن المرء لا ينجو من الإلذ كل يوم .. لكن ..

.. « هل ثمة احتمال أن يكون هناك خطأ ما ؟ »

قالت (هيلجا) وهي تمس الأوراق في مظروف وتناولها إياه :

- « احتمال كبير .. »

من جديد سقط قلبها في قدمها .. هذه المرأة تحسب أنها تتعامل مع جهاز كمبيوتر أو صنم . وكأنها تفقد قطعة من لحمها في كل مرة تحاول فيها أن تبعث بعض الدفء الإنساني من حولها ..

أرسلت (هيلجا) وهي ترشيف القهوة من قَدَح كبير
أمامها .. قَدَح كتب عليه (الحب Liebe) وسط قلب أحمر
كبير ! :

- « فقط لو كانت في بداية المرض قبل تكوين الأجسام
المضادة ، أو في نهايته حين يعجز جسدك عن تصنيع
الأجسام المضادة Anergy .. ولكن أنت تقولين إن الوخزة
حدثت من ثلاثة أشهر .. هذا يستبعد أن يكون الأمر مبكراً
أكثر من اللازم .. كما أنك لست في نهاية المرض
وإلا لدخلت هنا على مقعد متحرك .. »

ثم بملظظة قنفت بالمظروف على المنضدة ، وقالت بجفاء :

- « أذهبى يا فتاة فتعصى بحياتك .. إن الحياة جميلة .. »

قالتها بلهجتها القاسية الغائرة كأنها تقول (أنا أكرهك ..
ولكم وددت لو كان التحليل موجباً لأنعم بروؤيتك تموتين) ..
لكن (سيمون) برغم هذا أوشكت على تقبيل العجوز من
فرط سرورها ..

إنها حرة .. حرة ..

الآن انتهت مشكلتها الأهم ..

هل أخذت العدوى المفزعة من زوجها ؟ واضح أن هذا لم يحدث .. حتى الآن .. وارد جداً أن يحدث في المستقبل .. المشكلة الثانية التي لا تعرف حلها هي : كيف التقط زوجها العدوى ؟ متى ؟

يمكن للفول إنه أحسن بأعراض معينة ولله شك في الأمر .. وعلى الأرجح أرسل عينه من نومه مع أحد رفلقه إلى مختبر في (يلودى) .. لم يرد أن يخبرها به ولم يرد أن يجرى الاختبار في (مسافاري) لأنها ستعرف بعد ربع ساعة لا أكثر ..

★ ★ ★

« لقد زالت لحمى ، وعاد يعرج ويمزح وياكل كدودة القز .. زال الطفح لجلدي وتلاشت العقد اللعاقبة .. حقاً كان هذا فيروس الأربع والعشرين ساعة كما توقعت بالضبط .. صحيح أن الأربع والعشرين ساعة طالت قليلاً لكن من قال إن الفيروسات تمكك ساعة يد ؟ أروع ما في هذه الومككات البسيطة هو ثقتك التامة في أنها ستنتهى حتماً .. »

★ ★ ★

واقشعر جسد ها ..

ثم يكن هذا مرضًا عابرًا إذن بل هو (المعتلزمة القهقرية الحادة) .. لقد أصيب بالعدوى في وقت ما قبل هذا بأسبوعين .. هو لم يتلق دماء ولم يجر جراحة .. لا توجد طريقة بريئة يأخذ بها العدوى ..

ومتى كان هذا الوقت الذي أصيب فيه ؟

حينما كان يسهر مع تلك الشلة في ذلك النادي المريب .. هذا واضح ..

لو أضفنا لهذا أنه يفقد وزنه باستمرار ، ولها حسبت هذا ناجما عن أقرص التفسير التي كان يتعطاها من قبل .. إن وزن (لوى) لم يكن ثابتا قط وإنما هو صراع مستمر بين كرش يريد أن يتمرد وإرادة تصر على ألا يحدث هذا ..

لو أضفنا هذا للصورة لفهمنا لماذا أجرى ذلك التحليل ..

لكن إلى أى مدى كان بنوى إبقاء الأمر سرا ؟

هل كان سيخبرها ؟ متى ؟

الحقيقة أنها لم تستطع قط أن تستعيد طبيعتها حين عادت إلى الدار ، وكان أول ما لاحظته هو أن تلك المظروف لم يعد في مكانه .. كان سهوا وقد فطن إليه ..

جاء بعد الظهر من جولة في البلدة ، وكان كما رآه عندما خرج .. صامتاً غامضاً يبدو عليه الشعور الواضح بالثوب .. رياه ! كيف لم تلحظ إلى أي حد تدهور وزنه ؟ أحياناً تعتقد أنها لم تكن تصلح طبية على الإطلاق .. لكنها في الحقيقة كانت كأطباء العيون وأطباء الأسنان وأطباء الأنف والأذن وكل الأطباء الذين يتركز اهتمامهم على بقعة ضيقة ، لم تكن ترى في أي إيمان إلا عينيه .. بالنسبة لها كان البشر جميعاً عيوناً كبيرة تمشي على قدمين ، ولرب مريض لا تذكر بالضبط إن كان ذا شارب أو لا ... بدنياً أم تخيلاً ... متأثراً أم مبعثر الثياب .. فقط هي تذكر كل شيء عن عينيته ..

الآن يجلسان للقاء .. هذه المرة ثمة شيء ما يخيم على الجو .. لم تعد تستطيع أن تتعامل معه كشخص عادي .. إن ضميرها مثقل ، وضيق كذلك لو لاحظتم هذا ..

سأنته في فنون :

— « كيف حالك ؟ »

— « بخير .. »

— « لا تبدو بخير .. »

« إن من هم بخير لا يحملون لائحة تقول إنيهم كذلك .. »

لم يكن يكلل بما هو يقلب الطعام بمطبخه .. آه ! مطبخه !
يجب أن تحترس من الآن فلم يعد الأمر كما كان ..

هي ليست مخبولة .. لا ينتقل الإيدز بأشياء مثل الملعقة ..
هذه بديهيات .. حتى فرشاة الأم منان لا تنقله إلا لو جرحت
الثنتين تبعاً .. باختصار هذا احتمال واه جداً ، لكنك تعرف
هذه الأمور .. الذعر غير المفيد .. هناك حادثة حقيقية
عن عامل مناجم وجد ثعباناً على ساقه وهو يحلر ، وبدلاً
من أن يفضضه هوى على ساقه بالباطة ليترها ! الذعر
الذي يذيب المنطق .. لو زحف دُهبان على يدك لشعرت
بانها لن تنظف أبداً مهما غسلتها ..

الآن هي تعرف أن مرض الإيدز ، مرض قابل للاحتواء ..
يمكنك أن تقر أنك لن تصطب به ، وغداً ما تتجح .. لكنها برغم
هذا تعطيه إمكانات لا قبل له بها .. كتبنا ، خارق للطبيعة .. كأنه
في هواء البيت ذاته .. والحقبة هي أن هذا الكلام ينطبق على
فيروس (إيبولا Ebola) أكثر بكثير مما ينطبق على الإيدز ..

سألته بشكل عارض :

« هل هناك شيء تود أن تخبرني به ؟ »

نظر لها لحظة ، ثم رأى أن وجهها لا يحمل تعبيراً
معيناً ، فقال :

— « مثل ماذا ؟ »

— « لا شيء .. »

وعانت ثلثهم طعامها ..

هو إذن لا يحمل نية إخبارها أبداً .. سيظل يحتفظ بالسِر ..
يأله من أحمق ! والأسوأ من هذا أنه أتاني تماماً .. بفضل
أن يحتفظ بسره على سلامتها هي نفسها .. من أبسط حقوقها
أن تعرف نوع مرض من تعيش معه ، لكنه يأبى أن يفعل ..
ثانياً هو أحمق .. لا يستطيع أن يحتفظ بالسِر ويطلب العلاج
في الوقت ذاته .. ومن سيعالجه ؟ بالتأكيد واحد من أطباء
(سافاري) .. فهل يظل الأمر سرّاً بعد هذا كله ؟

تري هل يوجد علاج ؟

معلوماتها ناقصة في هذا الصدد .. فقط هي تعرف أنه
ما من علاج ناجح حتى هذه اللحظة .. فهل جسد جديد
لا تعرفه ؟ لربما كان هناك أمل ما ..

ولكن كيف من دون أن يصارحها بكل شيء ؟

هل تبدأ هي ؟ لا تعرف رد فعله .. فى القلب يكون هؤلاء المرضى عصبيين جداً .. على الأرجح سيرفض أية معاونة وسوف يرفض معاودتها هي بالذات بشدة ..

كثيراً ما يشخص طبيب العيون (الجذام) قبل سواه .. وقد كاد أحد المرضى يفتك بها حين صارحته بأن عينيه تكلان على أنه مصاب بالجذام .. اتضح أنه يعرف ذلك من زمن لكنه لا يحتفل أن يصارحه أحد بذلك ، وكان يأمل فى ألا يعرف طبيب العيون ذلك ما دام لم يفحص جسده .. حينما قالت له تلك الحقيقة تحولت إلى عدو اللدود فى اللحظة ذاتها ..

كان القدماء يعتبرون الجذام والصرع لغات أصابت للمرضى بسبب خطاياهم .. ولهذا كانوا يعملون هؤلاء باحتقار وكراهية ، وكان للمريض يتحول إلى منبوذ ينظره المجتمع .. سبب مقتنع كى يخفى للمريض مرضه ويقدر عصبياً حين يكلمه أحد عنه ..

كان هذا الكلام من خرافات الأولين .. لكن هل يوجد اليوم مرض يستحق وصف اللغة أكثر من الإيدز ؟

متى وأين وكيف ولماذا ؟

متى ؟ ذلك اليوم من عدة أشهر .. قبل إصابته بتلك
(اللوعة البسيطة) بأسبوعين أو ثلاثة ..

أين ؟ في ذلك النادي الذى يؤمه الأوروبيون ..

كيف ؟ تلکم هي المسألة كما يقول (هاملت Hamlet) ..

لماذا ؟ لأنه وعد ولأنه أحس .. كل الرجال أوغاد
حمقى .. إنه لا يستطيع أن يفتح بيت هادى وزوجة محبة
مخالصة .. إنه يبحث عن التفسير ، وقد رزقه الله بالتغيير ..
أعنف تغيير ممكن فى حياة إنسان .. إن شيئاً لن يعود كما
كان ، وسوف يمرح كثيراً وهو يرى لغاعات جسده تتلاشى
وتسقط ..

متى ؟ ربما بعد خمسة أعوام .. سنة .. عشرة ..

ربما لن يحدث هذا أبداً .. لكنها لن تكون موجودة
لتعرف ذلك ..

سوف تصارحه بكل شيء وتطلب الطلاق .. إنها
شخصان متحضران وإن تكون هناك مشكل .. ليذهب هو إلى
(بلوندى) ولتبقى هي هنا مع (سافارى) التى أحببها ..

على الأكل سيجد في (يارندى) الكثير من المرح ، بينما
هي تفضل الأدغال وأهالي القبائل ..

كنت تفكر في هذا وهي جالسة في الفراش ليلاً تقرأ على
ضوء الأباحورة .. بالأحرى تحاول أن تقرأ لكن كل شيء
يذوب أمام عينيها .. هل هاتان سمعتان أم أنها عصيت فجأة ؟
سمعتان ..

الفراش جوارها خال .. به يحلق نكتة في الحمام .. آه !
سيكون هناك دم كثير لأنه يجرح نفسه دوماً .. ماذا عن
موسى الحلاقة ؟ صحيح أنه يتخلص منها لكن لو حدث
ونمسي ذلك ، ومدت هي يدها بحثاً عن فرشاة الأسنان
عندئذ .. آه .. آه .. آه .. آه .. آه ..

الأمر خطير فعلاً .. ثمة حمار ما قبل إن الحياة مع مريض
الإيدز ممكنة .. واضح أنه لا يعيش مع مريض إيدز في دار
واحدة .. من السهل أن تتكلم وأنت في مكتب مكيف بعيداً
عن أي خطر .. ثم إن الأمر يكون أعتد بالنسبة للأطباء ..

إن الطبيب على تربية بكل الاحتمالات البهيجة التي يمكن أن
تطرا .. دعه يكتشف عقدة لغاوية في عنقه ولسوف يفكر
أولاً في سرطان (هودجكين Houghlin) بينما غير الطبيب
ميفكر في جروح الحلاقة .. دع ابنه يعانى من نزيف أنفى

(رعاف) ولسوف يفكر في سرطان الدم بينما كل أب آخر
سيلكر في شقاوة الأطفال الذين يلطمون بعضهم على الأكواب ..

ولكن .. ساعة إلا الربع ؟

لقد أمضى (لوى) في الحمام ساعة إلا الربع !

هذه ليست حلاقة .. بل هي جراحة إذن .. كان بإمكانها حلاقة
لحي عشرين كاهناً من (السيخ) المتكئين في هذا الوقت ..

تهضت متوجسة إلى الحمام وقرعت الباب في رفق :

- « (لوى) . هل أنت على ما يرام ؟ »

لا رد ..

أو - بمعنى أدنى - هناك صوت لكنه لم يسم إلى درجة
أن يصير رداً ..

- « (لوى) .. افتح الباب .. »

. لكن لا رد ..

الآن أصابها رعب حقيقى وراحت تهز المقبض مراراً في
عصبية ..

هل هي تحلم أم أن هذا صوت أنين فعلاً ؟

8 - الفيروس يواصل انتصاراته ..

- « إنها حياة قاسية بآرجل .. فقط حاولت أن أعم ببعض

المرح .. »

★ ★ ★

في عصر تقدم البيولوجيا الجزيئية صار من السهل أن تعرف كل شيء عن أي فيروس جديد خلال أيام من ظهوره .. الجهد الذي كان يستغرق قروناً في السابق صار يستغرق بضعة أيام في عصر الكمبيوتر وتقدم علم المناعة والخرايط الجينية .. هكذا يمكن القول إن كل شيء عرف عن فيروس HIV إلا الطريقة المثلى للعلاج ..

الطريقة المثلى ؟ هناك مائة طريقة للعلاج ، ومعنى هذا ببساطة أنه ما من طريقة فعالة بين هذه الطرق ..

كان للفيروس خلفاً من ترسانة الأقوية البشرية .. إن زميلته بكتيريا الزهري كانت هي الأقوى على مدى العصور ، وقد أعلن الأطباء عجزهم عن علاجها بينما هي تنتزع صحة الناس وتدمر عظامهم وجهازهم العصبي .. استعملوا الزرنيخ والسلفرسان .. وقضى الدكتور (إوليف) نيكلي سوداء يحاول أن يصبغها بصبغة تحبها .. على أن يمزج هذه الصبغة

بسم يقتلها .. الواقع إنه وصل للجواب الصحيح ، لكن هذا لم يعد له داع بعدما ابتكر (فلينج Fleming) العقار العفري : البنسلين .. العقار الذي كانوا سيطلقون عليه اسم (فلينجين) لكن للعالم رفض بإباء .. وسرعان ما اتضح أن البنسلين يقضى على بكتيريا الزهري كما يقضى المبيد الحشري الجيد على مستعمرة نمل .. ومن يومها لم تعد هناك مشكلة من هذا الوباء ..

لكن الحال مع الفيروسات يختلف ، لأنها تتحم بالخلية ذاتها ، وبصير من البصير القضاء عليها مالم تقض على الخلية ذاتها ..

ومن دون تعقيدات كثيرة تضائق كارهى التفاصيل ، نقول إن علاج الداء يتركز في سياستين : علاج الفيروس نفسه .. وعلاج الأضرار الانتهازية التي يفتح لها الباب ..

لعقار الذي برهن عن كفاءة نوعاً في السيطرة على الفيروس أو تقليل انتشاره ، هو عقار (زيدوفيردين) .. ثم لحقت به عقارات (ديدانوزين) و (زالسيتابين) و (لاميفودين) .. ليس من بينها عقار شاف .. لكن هؤلاء الغربيين يؤمنون بالإحصائيات .. قل متوسط عدد نسخ الفيروسات في الدم .. طالت حياة المريض ستة أشهر .. إلخ ..

ثمة مجموعة أخرى من العقارات ذات كفاءة ..
هذه العقارات يطلقون عليها اسم (مثبطات البروتياز
inhibitors protease) ، وهي باختصار شديد تمنع الفيروس
من تفكيك البروتينات الموجودة به .. إن الفيروس يصلح
كل بروتيناته في كتلة واحدة ، لهذا يحتاج إلى مقص يقص
به كل بروتين على حده .. هذه العقارات تمنع المقص من
أداء عمله ..

وقد وجد العلماء أن جمع عقارين من المجموعتين يعطى
نتائج أفضل .. على الأقل يكون الفيروس أبطأ في التعامل
مع المريض ..

بفضل هذه العقاقير وبفضل الوعي الصحي المتزايد ، بدأ
المرض اللعين يتخذ حجماً محدوداً في العالم الغربي ، لكن
ظلت إفريقيا هي مركزه الأصلي .. ومازالت الجنازات
مشهداً يومياً حيث يوجد الفقر والجهل والاحتطاط الخلقي ..
إن هذه العقاقير باهظة الثمن ، والعقار باهظ الثمن هو عقار
لا وجود له بالنسبة للفقراء ..

وماذا عن التطعيم ؟

لواقع أن هذه النقطة بالذات تزعج الفيروس ، وتسبب قلقه .. إن البشر يبدون واثقين من قدرتهم على ابتكار لقاح مناسب ضده .. ربما منذ اللحظات الأولى لاكتشافه ..

وتعود به الذاكرة إلى الوراء .. إلى زملائه القتالين مثل فيروس شلل الأطفال وفيروس الجدري وفيروس الحصى الصفراء وفيروس التهاب الكبد B .. كل هؤلاء حطموا الجميع وقهروا كل من حاول تحديهم ، لكن مبدأ اللقاح ولد ، وعرف الناس أنه يمكن أن تدرب الجسم على اتقاء الفيروس لو أعطيت جرعات صغيرة أو ضعيفة منه .. أو أعطيت جزءاً معيناً من جسم الفيروس ..

هكذا تم قهر الجدري لاختلى من على وجه البسيطة آلاف مختبرات الحكومة الأمريكية في (أتلانتا Atlanta) التى تصر على عدم تكديره باعتباره (قد يصلح يوماً ما لغرض ما) .. يجب ألا ننسى هنا أنه خدمها خدمة العمر يوم أباد قبائل كامنة من الهنود الحمر عن طريق بطاطين المعونة التى وزعتها الحكومة الأمريكية عليهم ، والتى تشبعت بالفيروس .. إذن هو فيروس (حليف) لا يجب أن يمحق من العالم ..

كذلك تراجع شلل الأطفال فلا وجود له تقريباً .. بينما بدأت امراض أخرى تتراجع ..

[الافروسنا العزيز ..

إن العلماء يعرفون الآن أنهم كانوا متفائلين أكثر من اللازم ، ولن عشرة أعوام على الأقل تفصلهم عن أي نجاح ناجح للمرض .. وهذا يعني أنه في إجازة حتى ذلك اليوم ..

لهذا يحمل حلقه ويسافر إلى إفريقيا حيث ينتظره الرفاق ..
وفي إفريقيا لن يضايقه أحد ..

إنه يتجه إلى الساحل الغربي كما فعل أي مستكشف عظيم جاء من أبله ..

هذه للبلدة تدعى (الكامرون) ..
هذه الضاحية الصغيرة تدعى (أنجواتيري) ..
تبدو راحة .. تبدو حافلة بالإمكانيات ..

ثم لا يستقر هنا ؟

لم لا يبدأ ثورة حياة جديدة ؟

★ ★ ★

9- إننى أخلى مسئوليتى ..

- « إنه لا يفتح الحمام .. »

سمعت هذه العبارة وأنا ألقت على الباب بمنامتى .. ومن خلفى جاءت (برنات) قلقة تتسائل من يترع الباب فى هذا الوقت ..

كانت الزوجة فى حالة مستيرية فعلاً ، والتموج تخلفها وتصيبها .. ولا أومها كثيراً .. إن للرجل عدة سيئة هى الإصابة بتوبة قلبية أو سدة رئوية فى الحمام .. هذا يحدث كثيراً .. والمشكلة هنا أنها ستكون ليلة سوداء فعلاً ..

لا هل لأمسى .. فلما الرجل الوحيد فى هذا المربع .. الرجل الوحيد الشلب نوعاً .. فلا أكل من أن أنصرف كما يلىق بالرجل الوحيد ..

خرجت مصرعاً أصعب للمصطفة بين الدارين ، ولما أعالول ألا أبعثر فى الظلام ..

للباب مفتوح .. انفتحت إلى الداخل متحمساً قبل أن أنكر حقيقة بسيطة : أنا لا أعرف أين الحمام ! هكذا انتظرت حتى

لحقت بي الزوجة مع (برنات) العريضة ، وأشارت لي إلى ردة جاتبيه ضيقة .. هنا رأيت الباب الموحد .. هذه مشكلة أخرى .. لا يوجد مكان يسمح بالتراجع للوراء كي تتدفع إلى الأمام !

حاولت بكتفي عدة مرات دون جدوى ، بينما هي لا تكف عن الصراخ :

« كل هذا ولم يرد اثمة مكروه أصابه ! »

كنت الآن متأكدًا من هذا .. قرجل ميت أو يموت .. أو هو فلقد المرشد ..

على كل حال لا بد من فتح هذا الباب .. أخيرًا لم أجد إلا الحلول العنيفة فطلبت منها ملأ .. لا بد أن هناك واحدًا هنا .. ذهبت قليلًا ثم عادت بالملء الضخم الصلب الذي كنت أحلم به ..

نصتته في فرجة الباب ورحلت لضبط مستصلاً بهاء كعلة .. كعت .. له ! هان هان هان ! علة ..

هان .. إنه يستجيب ..

وقلت لي (برنات) وهي تربت على كتفي بقلبي :

نصصت صدر الرجل . ثم جصت نبضه .. إنه مازال
حيًا .. صلصة غليظة لكنه مازال حيًا ..

صحت وأنا أرفع قميصه فوق عانة المغطس لأسهل
وصول الدم إلى مخه :

« أحضرا نجدة حالاً ! إنه لم يمت ! »

هرعت (برنات) تركض خارجة من الحمام « بينما لم
تفعل (سيمون) (لا أن قلت لي في حزم هستيري :

« أنت تلوّث يديه .. أنت تلوّث يديه ! »

« وما في ذلك ؟ سوف أستحم بعد هذا .. »

« أنت لا تفهم .. أنت .. »

ثم جئت على رجليها وراحت تتشجج ..

فوما بعد فهمت معنى ما قلته وهو حمى على كل حال ..
سقوط دم مريض بكميات كبيرة على الجسد السليم لم يتقل
المريض قط .. الخطر الحقيقي هو أن أجرح نفسي بهذه
الموسى وأنا خير منته ..

على كل حال كنت في هذه المرحلة لا أعرف شيئاً عن
القصة .. كل ما كنت أعرفه هو أن جارنا اللودود الطريف

أقرر أن يتنحى .. لماذا ؟ لا أعرف طبعاً .. إن البيوت أسرار
كما تقول .. لكنني قد تعودت ألا أدهش كلما كشف هؤلاء
الأشخاص شديدي المرح عن ميول لكتابية غريبة .. إن
(العصاب الاكتابي الانبساطي) حالة نفسية معروفة ..
وهي تفسر كل شيء .. هؤلاء الأشخاص يكوّنون مرجحين
إلى حد السفه أحياناً ، ثم سرعان ما ينقلب مزاجهم تماماً
إلى حد الانتحار ذاته ..

وعلى أخص تبصه .. لماذا تأخرت (برنات) ؟ إننا
نفقده بسرعة ..

قبل أن يدخل الجراح للدماغى (ألفريد سيجورد) غرفة
العصليات ، قابله خارجاً من غرفة تبديل الثياب مرتدياً
المنامة الخضراء المضحكة قبل أن يعقم نفسه ..

كان المريض على منضدة الجراحة ، وقد لفّ حوله
عدد لا بأس به من أطباء التخدير يحاولون أن يبقوه حياً
حتى يصل الجراح ، وقد علقوا له وحدثين من الدم بعد ما
فقد الكثير ..

قالت له د . (سيمون) فى توتر :

.. « خذ الحذر ياكتور .. »

نظر لها بعينين متسللتين فقالت موضحة :

- « إنه مصاب بالإيدز .. »

رفع حجبها في فهم ، ثم هرع إلى الدخول .. إنه يارع
وأعرف أنه سينفذ للرجل .. ما كان أحد سواء لو
(سياترني) العظيم ليستطيع إعادة كل هذه الأسجة
للمهتكة على حالتها الأولى ..

قلت لها وأنا أجبها من يدها كي تجلس على مقعد في
الاستراحة خارج مسرح الجراحة :

- « لا أعرف سر هذا التطوع المجاني بإخبار الجميع ..
هذا ثالث شخص تخبرينه خلال ربع ساعة .. »

جلست بشكل ألي وقالت :

- « أحاول إخلاء مسؤوليتي .. لن أترك أحدا يتأذى وأنا
أعرف الخطر الداهم .. »

أحضرت لها (برنات) بعض القهوة والبسكويت ..
وكانت قد ذهبت إلى الكافتيريا تبحث عن شيء ما ..
فقضت المرأة البسكويت بلا وعي .. بينما سألتها :

- « منذ متى تعرفين أنه مصاب بالمرض ؟ »

- « ثلاثة أيام 11 »

تبادلنا النظر و (برنانت) .. هذا شىء طازج جداً ..
لكننى تذكرت المحادثة السابقة معه ..

« شىء ! طبعا ثلاثية فقدان الوزن والحمى والإسهال بلا تفسير
على مدى شهر هي جزء من .. شىء ! من تعريف منظمة الصحة العالمية
WHO لمرض الإيليز .. لماذا اتصال ؟ شىء ! »

يسهل على معرفة ما حدث بعدها .. لقد أجرى تحليلاً
للفيروس ووجدته موجباً .. لم يتحمل الصدمة ولم يتحمل
الغضب وفضل الانتحار .. هل لهذا علاقة بمحادثة
د . (سيمون) الهاسية مع (هيلجا) الشمطاء ؟

.. « ما القصة بالضبط ؟ »

شربت بعض القهوة ثم بدأت بصوت مرتجف تحكى لى
كل ما قلته فى المصول السابقة فلن أكرره إذن .. وبدأت
الصورة تتضح وتكتمل .. طبعا كان أول سؤال سألته
(برنانت) هو :

.. « متأكدة أنه لم ينقل لك العدوى ؟ »

.. « بالتأكيد .. هذا أول ما خطر لى ببال .. »

سأصمت صميت ، ثم قلت لها وأنا ألتزم قطعة من
البسكويت الذي تركته :

- « ما هي خطأك للمستقبل ؟ »

لمتسكت بهتاء لمتسامة عجوزاً مستهترة وقالت :

- « للمستقبل ؟ كلمة قصيرة جداً .. كلمة تبدو قطعة من
الأساطير الإغريقية .. »

« لا يوجد مستقبل .. في بلد تتعري فيه المرأة على
تلك .. لا يوجد مستقبل » .. جملة تنكرتها له (صلاح
عبد الصبور) في هذه اللحظة بالذات ..
قلت لها :

- « بصرف النظر عن رأيك الخاص فهذا للبعض يحتاج
إلى علاج .. اعتقد أنهم سيجرون له عدداً لخلايا CD4 لمعرفة
هل وصل إلى مرحلة (الإيدز) فعلاً أم لا .. اعتقد أنهم
سيقيسون الحمض القنوي للفيروس في دمه لتحديد كمية
العدوى .. هناك قرصنة كاملة من الأدوية ستعطى له حسب
مرحلة المرض ، بالإضافة لبعض التطعيمات .. »

قالت في ضيق :

- « أنا لا أعيا بهذا .. هذه مشكلته من الآن فصاعداً ..
لقد أخطأ وعليه أن يدفع ثمن خطئه .. »

قلت محتجاً :

- « لماذا تفترضين أن الفساد هو السبب ؟ الناس تصاب
بالتيفروس من وخزة إبرة .. من نقل دم ملوث .. »

- « كل هذا مستبعد بالنسبة له .. والمرض لا تنقله
الحشرات فلا تقل هذا من فضلك .. »

معها حتى .. مرض الميلاق هو من الأمراض السرية ..
وقد اعتاد من يصابون به أن يدعوا أنه انتقل إليهم من
دورات المياه العمومية .. طبعاً هذا كلام فارغ .. مادامت
هي متأكدة من أن زوجها لم يتلق دماً ، وما دام لا يتعلق
للمخدرات وردياً .. فلا توجد إلا طريقة واحدة للعوى ..

قلت لها وأنا أضم المزيد من البسكويت :

- « هل متطلبين للطلاق ؟ »

- « بالتأكيد .. لو تجا من الموت .. »

ثم نهضت دون كلمة أخرى ، وبخطأ ثابتة ابتعدت في
الردهة دون أن تنتظر نهاية الجراحة ..

قلت لـ (برنات) وأنا أنظر إلى المرأة النحيلة ذات
الشعر القصير التي تهتد عفا :

- « قاسية جداً .. »

قالت (برلاد) باسمه :

- « أنت لا تعرف المرأة .. إنها تحب إلى حد الجنون ..
الانتهاب .. وهذا الحب العارم يتحول إلى أقصى درجات القسوة
والتوحش حينما يخذل هذا الحب .. إن المرأة العاشقة تقتل
بسهولة أكثر بكثير من المرأة غير المبالية .. »

فكت لها همسا :

- « فليحفظنا الله .. إلى أي حد تحبيني إذن ؟ »

- « ستعرف بينما أقوم بنشر عظامك بالمشعل الكهربى ..
عندها ستفكر : لقد أحببتى حقاً .. هذا بالطبع قبل أن يمر
المنشعل عبر جمجمتك لتفقد القدرة على التفكير .. »

تخلت الفكرة فارتجفت لها .. لا أدري لماذا لا أحب هذا
المزاح ..

وقطع كلامنا ظهور الدكتور (سيجورد) لاهثاً وقد نزع
ساعه وفلازيه .. قال لنا وهو يجلف عرقه بكفه :

- « سيجتر الأرملة .. وإن كان مزي شرايين معصمه
هاتف لا مثيل له .. أين زوجته ؟ »

- « ذهبت لتعلم .. إنها لم تعد للسهر حتى هذه الساعة .. »

بنت عليه لادھشة ، ثم قال وهو يواصل لتحرر من ثيابه :

- « سنتقله إلى العنابر لكن يجب إخطار طاقم التمريض بمرضه .. سأخبر الإدارة كذلك .. لربما قرر (آرثر شيلبي) أن يتولى علاجه .. يجب إبلاغ الشرطة كذلك .. »

★ ★ ★

رفع السائقى (ألبرت) عينيه فى دهشة ليرى الأوراق المالية الموضوعة أمامه على المنضدة ..

كان إفريقيا ضخم الجثة اسمه (مولانجا) له لون البانجان الأسود وشعر رمادى مجعد مزرق قليلاً .. وكان يعيش فى (أنجوانديرى) منذ عشرين عاماً منذ ترك قريته .. ظل يمارس الفلاحة والرعى ، ثم ابنتى بيتاً صغيراً وتزوج .. لكن حياته كلها كتب لها أن تتغير يوم زار أحد أقاربه فى بلدة دائية ، فوجد أنه نسي كل شيء عن الفلاحة .. إن المنطقة تعج بالغربيين .. وهم يدفعون جيداً .. لقد استطاع الرجل الحويط أن ينشئ ما يشبه كافيتيريا صغيرة ذات طابع غربى ، وزودها بوسائل التسلية المختلفة ، وهكذا بدأ أول غربى يتردد عليها .. ثم جاء الثانى .. ولحق بهما الثالث والرابع .. يبطء تحول المكان إلى ناد من أندية (لندن) حيث يجتمع الغربيون ذوو

للمول المتشابهة ليذخروا ويصرفوا الموسيقا ..
وكان بعضهم ذا ميل للفصل لذا أعد غرفتين في الداخل
يمكن فربها تعاطى المخدرات لو أى شيء آخر ..

لخلافات ؟ لم يكن قريبه يفكر في أمور كهذه بينما
الدولارات والفرنكات تتراكم ، وكان يقول يوماً : أنا لا أفسد
كاميرونين .. بل أفسد الغربيين الذين اعتصرونا قروناً !

هكذا كان يمارس عمله بروح (وطنية) عجيبة بعض
الشيء هو القرب إلى (التأميم) .. إنه يؤمن ما في جيوب
هؤلاء الأوروبيين لصالحه .. ويزداد ثراء !

تعلم (مولانجا) الدرس وفهم كل شيء عن هذه
المهنة .. وسرعان ما عاد إلى (أنجوانديري) ليحول البيت
الذي ابتناه إلى مزيج غريب من ناد بريطاني وملهى وحتلة
وكافتيريا .. أطلق على نفسه اسم (ألبرت) كي يوحى
لهؤلاء القوم بالألفة .. لكن ظل اسم النداءى (مولانجا) ..

بالطبع لم يكن المكان نظيفاً تماماً وكان طابع الفقر يخيم
على كل شيء .. لكنه كان يعرف أن بعض هذه التلمعات
تسحر الغربيين .. وحين تكفل المكان ماعز لم يكن يطردها ..
وحين يلهو أطفال عراة على الباب لم يكن يمنعههم ..

بهبطه جاءه أول عصيل .. لكنه لم يلقى لآله يعرف أن
الأمور ستزدهر سريعاً .. هذه المنطقة تسج بمهنة
الاتصالات كما أن هناك كنزاً لا يتلذ من الغربيين يتمثل في
وحدة (سفلاري) القريية ..

هكذا فخل على المحل ما يناسب الذوق القريي ، مع
بعض لمحات إفريقية مثل الأكمة والرماح على الجدران ..
مثل الموسيقى الإفريقية المنبشة من سماعات عملاقة ..
مثل الخمر المحلية القوية التي يمزجها بما يشربه هؤلاء
للقوم .. أيضاً لم ينس أن يتابع منضدة بيلاردو من مهاجر
للمنى وأوراق لعب ..

تدريجياً صار الزبون قتين ثم ثلاثة ثم جاء يوم الزحم
فيه الممكن ..

تعلم الكثير من الإنجليزية ، وكان يتكلم الفرنسية جيداً ،
ثم اكتسب بعض الروسية والألمانية .. وكان يقف وراء
البار بالقلعة الدخلية والصيغار بين شفتيه ، وهو يتكلم
بكبرياء كله ساقى في (الشيراقوان) أو (الهيلتون) ..

تدريجياً شعر بأن عليه أن يزيد نشاطه .. وقد عرف طريقة
الحصول على مخدرات ، وأقع بعض الفتيات بالتردد على

المكان .. بعضهن إفریقیات لكن بينهن فتاتین روسیتین ..
وبالطبع كان يفتح نفسه بأنه ليس بهذا السوء كما
يقولون .. إنه يحارب الغرب بطريقته الخاصة .. إنه
مفاضل ! لا أحد يحسب نفسه سيئاً في هذا العالم على كل
حل .. الطالب الفاسد يتحدث عن أبيه الذي لا يخصص وقتاً
لسماع مشكله .. راقصة البطن ترى أن فرص عمل والعمل
شرف .. المختلس يتحدث عن حاجته لإطعام أطفاله ..
للمنافق يفتح نفسه بأن بهذا السوء بل هو يستحق ..

كان التفاهم بين (ألبرت) والشرطة تاماً ، فهذا ليس
مجتمعاً مدنياً إنما هو عشيرة .. كل من يمت له بقربى هو
أقرب إليه من الدولة ذاتها .. ثم إنه كان يعطى بعض
الخدمات لهؤلاء ..

هكذا استقرت الأمور وسارت الحياة بانتظام بالنسبة له ..
لاداعى طبعاً للقول إن زوجته كانت تعاونه في العمل ..

الآن وجد نفسه يحدق في تلك المرأة الفرتسية النحيطة ،
التي تضع عوينات سوداء ، والتي تقف أمامه وقد وضعت
حزمة من الفرنگات على النضد ..

قالت له وهي تبسم ابتسامة خفيفة :

« هذا المبلغ لك .. »

لم يكن طفلاً .. بل هو رجل خبر الجانب المظلم من الحياة .. ولو كان في (شيكاغو) لكان من رجال العافيا المرموقين .. وقد علمته الحياة درساً مهماً : لا أحد يعطي شيئاً دون مقابل .. مقابل فادح يكسب به أضعاف ما فقده ..

ولهذا أيضاً كان يشعر بظم راحة تجاه تلك العروض غير المبررة .. كان يفضل أن يكون الناس لصوصاً أو غافداً يحاولون سلبه ماله الحبيب ، لكن هذه لغة لا يفهمها ..

لهذا رفع عينين متسائلتين نحوها ولم يعد يده ..

قالت في قسوة :

— « هذه النقود لك .. مقابل معلومة .. هل تعرف (لوى

مولنيسار) ؟ »

فكر قليلاً ثم غمغم :

— « آه .. ذلك الفرنسي .. المهندس .. نعم .. نعم .. لم

يأت من زمن بعيد .. »

— « هذا المبلغ لك لو أخبرتنى باسم المرأة التي كان

يقابلها !! »

10 - اسمها (تاتيانا) ..

الآن فقط بدأ الأمر يدور له ..

سوف نمرح كثيراً جداً .. فهذه المرأة لا تفقه شيئاً عن الحياة ، وتتصرف بمذاجة منقطعة النظير .. إن خبرتها بالحياة لا تتجاوز بضعة ألام ..

لا يحتاج إلى أسئلة أكثر .. فهذه المرأة هي الزوجة الغيور للفرنسي .. وهي تعتقد أنه سيعطىها معلومات عن زبائنه بهذه البساطة .. لكنه يستطيع أن يربح بعض المال على كل حال ..

أفزع منشئة لمسح للتضد أمامه .. كل هؤلاء المسكاة يمسحون للتضد حين يبحثون عن فرصة للتكبير ، وقال :

- « كيف لي أن أفكر ؟ إتهن كثيرات .. لكن .. لحظة .. إنها (تاتيانا) .. تلك الروسية البدينة .. نعم .. هي .. »

ومد يده ليأخذ المال ، لكن يدها منعه وألقت في عزم :

- « لحظة .. كيف لي أن أجد لها ؟ »

فكر حيناً ثم قال :

- « إنها تكون هنا يوماً في العاشرة مساءً .. ولكن ..

لا أريد متاعب هنا يا مدلم .. »

— « لا تفكرى .. ليس هذا فى نيتى على الإطلاق .. »

فكرت فى نقطة أخرى .. نظرت لوجهه الأسود القليل
وسألت :

— « هل كان يتعاطى أفكار ؟ »

كان يعرف أنها تعرف .. وهو لم يعد يتلقى برأى أحد
فهو فوق القاتون .. بل لا يوجد قاتون أصلاً ، لذا قال
مسلماً :

— « لا .. ليس من هذا الطراز .. »

هذه المرأة قبضت يده على المال ، فلم تعترض .. فقط
لهتسمت بغوض واستدارت مبتعدة ..

قال لنفسه إنه لم يرتكب خطأ .. هذه المرأة لا تستطيع
أن تؤذى فبلىة ..



كنت تجلس خلف رأس المريض ، الذى تغطى كله بالأغطية ،
وقد ثبتت العيون ذلت العنسات على وجهها .. وقد راحت
فى رفق تتنزع عزمة العين .. كان المريض متيقظاً لكنه
هادئ بلعل الأفكار التى أخذها مع المنظر الموضى ..

« كان (لوى) رقيقاً .. لم ينس هيد ميلادها قط ، ولم ينس
يوم زواجهما ، ولم ينس شيئاً من تلك الأمور التي يحب الأزواج أن
ينصوها ..

أحياناً تفيق في الليل فلا تجد جوارها .. تجد في المطبخ يفصل
الأمطار التي قررت أن توجل فصلها إلى الصباح ، وأحياناً تعود من
العمل لتجده قد طهى لها وجبة ساخنة ..

متدكانا في الوطن ، أشعرها بأنها ملكة .. ولم يكف عن ذلك
يوماً .. وحينما قتلت كل الأجنة الذين قتلهم قال لها وهو يلتمس
يلها إنه لا يبالى بالآبوة .. على الأقل سيجعلها هذا له بالكامل .. لن
يأتى طفل وقد ليأخذها منه ..

كان رقيقاً .. وكان »

إن العنسنين مبتلآن بالدموع الآن .. للزوجة عسيرة
حقاً .. ومتى ؟ هذا أعقد جزء من جراحة الساد Cataract
وهي لحظة النزاع حصة العين المعقمة .. لكن هذه اللحظة
ستمر حالاً ..

وصاح طبيب وهو لا يستطيع أن يفارق الجراحة التي يقوم بها :

« فليتقدم أحدكم ويهرع لاستكمال هذه الجراحة حالا »

وهرع ثلث من الأطباء يحملونها خارج مسرح الجراحة ، بينما هرع أحدهم إلى غرفة للتقديم ليواصل ما بدأه هي ، وهو يدعو الله ألا تكون ألفت شيئا لحظة سقوطها .. نحن نتعامل مع عين بشرية لا مع (كاريكاتير) سيارة لو كانت قد لاحظت هذا ..

وحين ألفت في الاستراحة قال لها : . (شافير) في ضيق :

« آخر وقت يمكن للمرء أن يفقه وعيه فيه هو يوم الجراحة .. ولذلك لحظة للتراجع حصة العين .. »

وكانت تعرف هذا .. إن التوتر والتوتر يعنيان المزيد من الأدرينالين - الإبينفرين Epinephrine للنقطة - وهذا يعني أن العصب الحائر لا يستطيع أن يفقهه الوحي ..

لكن الضغط العصبي كان أقوى منها على كل حال ..

« أنت بحاجة إلى إجازة .. »

قلت وهي تنهض وتترنح نوحًا :

« أنت تعرف أن »

« أعرف .. زوجك مريض وفي حالة خطيرة .. لهذا أجد أن قرار الإجازة مهم جدًا .. نحن نتعامل مع عيون بشرية لا مع كرات بنج بونج .. لهذا أنا أطلبك بإجازة .. بالأحرى أمرك بها .. »

★ ★ ★

اسمها (نقيفا) .. تلك القروسية البدينة ..

نعم .. لابد أنها بدينة .. يقولون إن كل رجل يبحث عن صفة ليست في امرأته .. هي تاحنة رقوبة ذات وجه طفل ولها شعر أسود قصير كالعصبية ، فلابد أن (نقيفا) هذه بدينة مختزير ، شيطانية الملامح طويلة الشعر شقراء ..

كنت (صيمون) جالسة في سيارة (مسافري) للجيب الواقفة في الظلام على بعد عشرين مترًا من مدخل تلك القلعة .. ولست أتكلم برونى قد نام من طول الانتظار ، لكنه يعرف أن مكافأة مالية سخية ستصله بعد انتهاء المهمة ..

في العاشرة مساءً رأت ثلاث سيارات تتجهن إلى المدخل

المضياء .. اثنتان منهما إفريقيتان ملطختان بالأصباغ
والحلى الرخيصة .. إن المرأة الإفريقية تفقد كل سحرها
حين تتشبه بالغربيات .. مثلاً حياً للطائر الذى نسي العشى
ونسى الطيران ..

أما الثالثة فامرأة بيضاء بدينة .. لا يوجد مجال للخطأ ..
إنها هي ..

لماذا ظلت حية وبصحة جيدة لو كانت هي صاحبة اللعنة
الأصلية ؟

« وهو لغز من ألغاز (الإيزر) .. لماذا قد يعيش ناقل
المرض أطول ممن نقل إليه المرض ؟ من الجلى أن هناك
فصولاً من القصة لم تكتب بعد .. »

ظلت تنظر لها لمدة عشر دقائق كاملة وهي تقف مع
صديقتها تمزح .. نعم .. ثم يكن ثمة شك فى مهنتها
الحقيقية حتى لو ادعت أنها عالمة آثار أو خبيرة فى
المعادلات غير الخطية ..

الآن دخلت اللتان الإفريقيتان إلى النادي ، ووقفت
الروسية في الخارج بعض الوقت .. أخرجت لفافة تبغ ،
وأشعلتها وراحت تنظر إلى السماء متظاهرة بشاعرية
لا وجود لها ..

هل هذه الفرص كثيراً ؟ لا .. إن القدر يمهّد لها الطريق
ويفرشه بالورود . يقول لها إن الوقت قد حان لتخليص
البشرية من آفة .. سوف يندو العالم مكاتاً أجمل وأنظف ..
ومن يحزن على فقد هذه ؟ بالواقع لا أحد .. إنها من
الأشخاص النادرين كالبورانيوم الذين لن يخسر أحد شيئاً
بهفقدهم .. فقط سيخسر الشيطان الكثير ..

السائق نائم كطفل وديم ؟ إنه يحلم بالفرنكات التي
ستملأ جيبه لدى انتهاء المأمورية ..

تفتح درج السيارة في التابلوه وتفتش عن شيء يصلح .
لا بد من شيء يصلح ..

سكين تقطيع لحاكة .. لماذا يحتفظ بها ؟ لتقطيع اللحاكة
طبعاً .. إنها تصلح ..

هكذا يستها في جيب ثوبها ، وترجلت من السيارة ..
ليته لا يصحو الآن ..

تمشى فى تودة قلعة مسافة للشرين مترًا . تتكرر
كلمات (هتشكوك Hitchcock) عن أن كل إصان يمكن أن
يكون قتلًا فى أية لحظة .. القتل لا يولد قتلًا .. الآن
هى تعرف ما ستفعله جيدًا ، وسوف تقوم به دون أن
تهتز ..

الخطر كل الخطر هو ألا تتم مهمتها ..

كنت من القتاة أكثر فنظرت لها هذه مرتبة ..

ماذا يعجبه فيها ؟ ماذا أعجبه فيها فى ذلك اليوم ؟ إن
الرجال مخلوقات بلهاء حقًا .. هذه القتاة لها ذات ملامح
(بريجنيف) لو أن (بريجنيف) كان أحول قليلًا ..

قالت القتاة بلغة فرنسية غالية فى الصوت :

« مساء الخير .. هل أعرفك ؟ »

قالت (سيمون) برفق وهى تتقدم أكثر :

« لمة عرض معين .. لكن يجب أن نبتعد عن هنا .. »

قالت للروسية وهى تطوح بالمفاحة تبغها :

« لنا لا أقبل أية عروض .. لا بد من أن تتفاهى مع

(مولانجا) أولاً .. أنت تعرفين هذه الأمور .. »

.. « لويس الأمر كما تظنين .. الأمر يتعلق بالكثير من

العمل .. »

هذا الاهتمام على الفتاة - طبعاً - وبالطبع هي لا تتوقع
أى خطر من ناحية امرأة هشة مثل (سيمون) ، لذا هزت
رأسها ضاحكة وأشارت إلى ركن بعيد بين الأشجار يمكن
أن تتكلمنا فيه ..

تبتعدان قليلاً ، وتقف لروحية وتخرج نغمة تبغ أخرى ،
وتقول :

.. « علماً عزيزتي ؟ »

في قوة عقلها مسعرة ، وثبت (سيمون) تنفسي بكل
عقلها على الفتاة ، وكانت تصدمه قوًى من أن يتصلها
توالت الأخيرة برغم بدلتها . هذه أشياء يعرفها كل
من لعب (الجرجوتسو) ، وهكذا سقطت على الأرض على
ظهرها ، ولا تدرى كيف وجدت تصل للسكن تحت عقلها ..
لا بد أنه لم يثنى شيئاً لأن عطفاً دافئاً كان يجري هناك ..
تسرع به فتيكى ..

.. « أنت مجنونة ... علماً تبتئين ؟ »

قالت (سيمون) وهي تضغط أكثر :

- « من يدعى (لوى مونتسار) .. مهندس فرنسى ..

هل تعرفينه ؟ »

- « لا .. لا .. أى .. »

التصل يتوغل أكثر ، والجنون فى وجه (سيمون) يكفى

وحده دون سكين .. تقول (سيمون) من بين أسناتها :

- « لاحظى أنك لو صرخت فلن تعرفى أبدا متى رحلت

إلى جهنم .. »

هتفت الروسية وهي تبكى وترتجف :

- « أعرف .. لكن لا علاقة لى به .. لقد كان يلعب

البليارد ثم ينصرف .. فقط .. »

- « كاذبة .. »

- « أقسم لك .. إنه ليس من هذا الطراز من الرجال ،

وكان الآخرون يطلقون عليه (الزوج الأبدى)

ساخرين .. »

قلت (سيمون) وهي ترفع النصل قليلاً :

- « وماذا يجدى قسمك على كل حال ؟ أنتن تستعملن
القسم كما تلاتن .. لقد انتهت اللعبة يا صغيرة .. ليترك بقيت
مع نورك فى (كيف) .. إن .. »

فى اللحظة التالية كنت قد انتزعتها من شعرها
وألقيت بها على الأرض ، ثم ثبتت معصمها لأنتزع
السكين .. تعلمت هذه الطريقة من (أشرف) صديقى
فى المدرسة الإعدادية .. وقبل أن تلهم الروسية شيئاً
عدت لها كي أضع السكين تحت عنقها وحاولت أن
أبدو مرعياً :

- « ولا كلمة عما حدث .. متعودين للتلاى وتعلمسون
حياتك العادية .. إن مارايتيه لم يكن سوى حلم .. وإلا عرفت
كيف أصل إليك .. هيا ! الهضى ! »

هنا شعرت بأظفار حادة تتشب فى عنقى من الخلف ..
لقد جاءت د . (سيمون) تعلم ما بدلته ..

- « أنت لن تتركها تتحرر .. »

هكذا استكرت وأويت نراعيها لأبسطها على الأرض من
جديد .. وصفت في (تثنية ١٢) :

« يا صريخا حقا .. لو كنت تتسبح لله هنا هذه
مشكلتك .. »

بدا عليها أنها لا تصدق ما يحدث ، ونهضت مطلقا
لما فيها العقل .. لم تعد في القدي وإما توارث في
السلام ..

نهضت د . (مريمون) من الأرض باكيا .. كانت تبكي من
الغضب والقهر ، وقبل أن تتكلم أو تكلم صوت الصفحة على
خدي لتلقني صوابي حتى شعرت بأنها أطارت جانب
أبنائي الأيسر كله .. من عيني أتبع لسان من البرق كما
يحدث في القصص المصورة .. وشعرت بحلق موتون ..

« من أي بالوعة أتيت ؟ وكيف عرفت أنني هنا ؟ »

التفكرت حتى زال الصلح من أنفي .. من حسن حقها
أنني لا أضرب النساء وإلا لاستغنت بتحويلها إلى عيون ..
لنظمت وأنا أترنح :

.. « السائق كان ينتظره خارج داره .. فتوسطه لأثره معه فقال إنه طلبته لتذهبي إلى (مولانجا) .. لعنا تريدون الذهاب إلى (مولانجا) في ساعة كهذه ؟ كان استنتاج قبلي سهلاً .. ستكونين بعمل مجنون .. وخطر لي أن أتلوي بين الأشجار وأرى ما تقوم عمله .. رأيتك تلغنين تلك الفتاة على جنب ثم تلقيتها أرضاً وتضعين يديك تحت عنقها .. صارت القصة واضحة .. لا يبدو الأمر غامضاً سياسياً بين صديقتين .. »

.. « السائق للقرآن »

.. « لو لم يقل له أحد إن الأمر سر .. ثانياً لعدى قلبه أنني كنتك من جرم كهذا .. لن تعرف الحقيقة أبداً فلا تقضي وقتك في نبح الناس .. »

.. « إنها مجرد قملة قنزة .. »

.. « لو قرر المرء نبح كل القذرين لتحول علمنا إلى سلخنة .. في الإسلام يذوق قهلم كهذا قلباً ما لم يقره أربعة شهود ، والسيد المصريح يقول (من كان منكم بلا خطيئة فليرحمها بحجر) .. »

ثم أشرت لها نحو السيارة الواقفة في الظلام ، وقلت :

- « ساعدك إلى الدار .. سأتأكد من أنك أخذت قرصنا

مهدئا .. لو شئلت أن تببت (برتادات) معك الليلة

فلا أحسبها تمتع .. »

هزت رأسها ولم تقل شيئاً ، ومشيت معي إلى السيارة ..

سألتني وهي تفتح الباب :

- « هل تحسبها ستتكلم ؟ »

- « من ؟ تلك الروسية ؟ لا أظن هذا .. لقد عقد الذعر

لسانها .. لقد أخافها تهديدي .. »

وكان السائق نائماً في سرور لا يشعر بكل الحراك

والمذابح التي دارت على بعد أمطار منه .. هذه هي مزلة

أن تكون لحيى ..

11- نهاية سعيدة ..

بعد يومين سمعنا أخبارًا جديدة ..

لقد شبَّ حريق مروع في ذلك النادي الذي أنقاه
(لبرت) .. حدث هذا فجر أمس .. كان المكان خاليًا ..
ويبدو أن هناك من تسلك والفرغ عدة جالونات من
الكبروسين من تحت الأبواب الموصدة ، ثم طوح ببعض
الكبروسين من نافذة ، وتلاها بعود ثقاب مشتعل ..

كان للحريق هائلًا كما لك أن تتوقع ، وقد التفت الأهالي
جميعًا حول المكان ، وقاموا بأسنوب (طابور الدلاء)
الشهير محاولين إطفاء النار .. لكنهم تأخروا أكثر من
اللازم ، وفي النهاية تحول المكان إلى خراب تنعق فيه
البنوم ..

لم يصب (لبرت) بأذى .. ورغم أنه يسكن في غرفة
خلفية مع امرأته .. لكنه بالتأكيد كان يفضل أن ينتهي أمره
في الحريق ، أو - على الأقل - تحترق امرأته . فهو من
الطراز القليل الذي يؤمن أن الإنسان قابل للتحويل لكن
المال لا يحول ..

هكذا جلس أمام أطلال نفسه يراود وينظم خفيه .. وراح
يتكلم كلاماً كثيراً بلغة (البانتويد) لم تفهم منه شيئاً طبعاً ..
لكننا جميعاً في (سافاري) شعرنا برحلة .. لو كان هذا
حادثاً عرضياً ، فقد خلص البلدة من وباء اجتماعي لا شك
فيه ..

حين فتحت د . (سيمون) الباب وجدتي لنا و (برنكت)
نقف هناك ونبتسم ..

ابتسمت بدورها وقلت لي هرج :

« هل تكفلان ؟ »

قلت لها في ثبوت :

« جلنا نهنك على ما قت به .. يعلم الله كيف وجدت

القوة والشجاعة لذلك ، لك سعيدة لحظ لأن لمداً لم
يحترق وإلا لتغير موقفنا بالكامل .. »

هتفت في ضياء :

« هم تتحدثن ؟ »

قلت (برنات) وهي تجذبني من ثراعي :

- « لوكن .. نحن على خطأ .. خطر لنا أن ..

لا عليك .. »

عانت للطبية الفرنسية تصبح في حراسة :

- « عم نتحدثان بالضبط ؟ »

قلت لها وأنا أبتعد مع (برنات) :

- « لا تظلي يا بكتورة .. اصبري لنا ثم نحل شيئاً .. »

كنت أعرف أنها فطنتها طبعاً .. فأتون للصيغة لا يصل

بهذه العشوائية المجنونة .. طبعاً هي لن تتكلم ونحن لن

نتكلم .. لن يستطيع أحد إثبات التهمة عليها ، وحتى لو

تذكر الصافي وجهها لو تكلمت لفتاة الروسية ، فإن هذا

ليس دليلاً على أنها يمكن أن تحرق المكان ..

لا أذكر أنني لا أشعر بأية رغبة في نومها أو اتهامها ..

هذه المرة كان انتقامها موجهاً للهدف الصحيح ، ولم تتلوث

بدها بدم بشري .. وإن كانت للعلية الإلهية وحدها هي من

حقك ذلك ..

لا أنكر أنها شجاعة .. هذا طبعا لو كانت قامت بالعمل وحدها ، ولم يساعدها فيه شخص م .. وإن كنت أستبعد أنها ستجد من يقبل .. إن من يقبل ربما يتكلم فيما بعد ..

وسألت (برنادت) ونحن عائدان لدارنا :

- « أليس غريبا أنها لم تزر زوجها في المستشفى
قط ؟ »

قالت :

- « لا أستغرب هذا .. كما قلت لك هي تحبه جدا .. تحبه إلى حد أنها لا تطيق رؤيته .. هذا هو ما أستطيع قوله في هذه اللحظة .. »

ثم سألتني :

- « هل رأيتك اليوم ؟ »

- « يتحسن بأضطراد من ناحية الجرح ، لكن حالته المعنوية صفر .. وأعتقد أنه سيمرر المحاولة .. لقد أبلغتهم بهذا في الإدارة لكنهم حمقى طبعا .. سوف يقولون فيما بعد إنهم لم يتوقعوا أنه سيزرع خرطوم المحلول وينفخ فيه ،

أو يسرق سكين الطعام ويغدها في صدره ، أو يدخر
 الأكراس المهندنة ليبلغ خمسين قرصاً في جرعة واحدة ..
 سيقولون هذا فيما بعد في أسف .. هذه هي القصة دائماً ..
 الحقيقة أن الضمان الوحيد لحياته هو أن أرقد أنا تحت
 فراشه لأراقبه .. تعلمت من زمن ألا أثق بأحد سراًى .
 لكن هذا الحل مستحيل عملياً .. »

قالت وقد تذكرت قصة مماثلة :

- « مثل (ويلسلى) فى (كينيا) .. »

- « نعم .. لقد أذرت الجميع .. كنت أعرف ما سيحدث
 لكنهم قالوا لى : نحن حثرون بما يكفى أيها الشاب .. وبعد
 لتبحاره قالوا : خسارة .. لقد كان جاداً ! »

كنا قد بلغنا دارنا ففتحت لها الباب ..

أعتقد أن القصة انتهت عند هذا الحد .. هناك مشكلة قاسية
 تنتظر الدكتورة هى أن تعالج زوجها الذى لا أعتقد أنها
 ستطلب الانفصال عنه .. طبعاً لا يوجد علاج .. ستعيش أياماً
 قاسية مريرة واسوف تحضر عملية وفاته البطيئة ساعة

بساعة .. وفي النهاية سيموت وتترك هي لوحدة عائلة
إلى وطنها ، ونمضي بآلى حياتها تجتبر الذكرى
جوار المفاة ..

فى الصباح وقت د . (سيمون) فى المطبخ تعد لنفسها
الطرا ..

ليوم تشعر بأنها أفضل حالاً .. ثمة جو من التسامح وخيم
على روحها .. اليوم فقط تشعر بأنها قليلة على الذهاب إلى
المستشفى ولقاء زوجها ..

إنها لم تستطع أن تغفل له عدة أشياء .. حيثيات الحكم
للصالح عليه فى وجداتها كثيرة ..

إنه تركها وراح يبحث .. إنه أصيب بالإيدز .. إنه لم
يخبرها .. إنه تخلى عنها حين حاول الانتحار .. باختصار
تصرف كلها لم توجد فى حياته قط ..

كانت تشعر بحقد .. لكن هذا الحقد قلائى كلما كان فى
قلبك للتأذى عندما احترق .. الآن هى لا تحمل ضده شيئاً ،

وبوسعها أن تعود إليه لتخبره أنها سلمته .. سوف تبنى
 معه في رحلة العلاج الطويلة .. صمغ أنها رحلة
 بلا جنوى نهايتها يوماً هي شاهد القبر ، لكنها لن تخبره
 بهذا .. ستتركه له الأمل ..

انتهت من قلى البيض واللحم فقلت محتوى العبلة في
 طين ، وصفت إلى خرفة الطعام ..

إنها بحاجة إلى كل قواها اليوم ، وقد حان الوقت كي
 تكل .. للمرة الأولى تكل من زمن بعيد .. ربما قرون ..
 لكن .. هذا غريب ..

ليست شهيتها على ما يرام .. قررت أن عليها أن تكلوم ..
 جسدها بحاجة إليها وهي بحاجة إليه ..

خرست المشوكة في شريحة لحم ورفعتها إلى نفسها .. هنا
 شعرت بدخشة .. إن حلقها يذامها .. واستقها كفه محترق ..
 ثم ما هذا المذاق الغريب للحم ؟

نهضت إلى الحمام وأفرغت ما فيها في البلوعة ، ثم
 وقلت أمام المرأة تتأمل وجهها لتحيل الرقيق ..

فُتِّحت فَمِها وأُخْرِجت لِسَانُها ..

ما هذا ؟

ما سر كل هذا الفطر الذي يملأ فَمِها ويفضي لِسَانُها ؟!

★ ★ ★

قال لها طبيب الأسنان هو يفحص فَمِها :

- « هذا سهل .. هذا طفيل (كانديد) ياكتورة .. لا أستبعد أنه تسلسل إلى المروء كذلك .. إن عقار (ماريكوسيتاتين) أو (فلوكونازول) يمكن أن يشفي هذه العدوى بمنزعة هائلة .. »

قالت وهي تتنهد في راحة :

- « حمدا لله .. حسبت الأمر مقلقا .. »

قال في كياسة وهو يطلو المصباح المصلط إلى فَمِها :

- « بل هو مقلق .. إن علاجه سهل .. لكن الأهم هو

سببه .. »

- « سببه هو الكانديدا .. »

- « نعم .. لكن لم ظهرت الكاتريدا ؟ لو كنت مكانك لبحثت عن سبب لتدهور المناعة .. السكرى .. عقار الكورتيزون .. وهناك إجراء سخيף لكنى أوصى به كروتين .. كما يقول الإنجليز : لا يمكنك أن تكون حذراً أكثر مما يجب .. »

ثم أريف وهو ينزع عويناته :

- « .. اختبار لفيروس HIV .. »

قالت لها الدكتورة (هيلجا) فى عصبية :

- « أكرر أن الاختبار الخاص بفيروس HIV سلبى .. وهذا

يكفى كى نقول إنك خالية منه .. »

كانت (سيمون) جالسة على طرف المقعد ، وقد تشابكت

يذاها فى صيغة توسل .. وقالت مقوترة :

- « إن الموضوع ليس هيناً بالنسبة لى .. زوجى مصاب

بالفيروس ، وأنا أصاب بهذا الفطر العين .. أليس الأمر

مريباً ؟ أعتقد أننى أصبت بالعدوى منه .. »

ثم نظرت لعين المرأة لشعطاء وقالت :

- « هل من سبيل للتأكد ؟ »

قالت (هيلجا) وهي تنزع عوينتها :

- « يمكننا أن نجرى بحثاً عن الحمض النووي للفيروس بأسلوب (تفاعل سلسلة البوليمريز PCR) .. يمكن كذلك أن نجرى عدداً لخلايا CD4 .. لكنني أؤكد لك يا صديقة أنك تضمنين وقتك وملك .. »

- « أريد أن أعرف .. أرجوك .. »

ضغطت (هيلجا) زر الجرس ، وطلبت من يلقى ليأخذ عينة أخرى من دم د . (سيمون) .. لحسن الحظ لم أكن في المختبر وقتها .. وظهرت العمرضة حاملة ما يلزم لأخذ عينة ..

- « سنعرفين النتيجة خلال ثلاثة أيام .. »

.....

بعد ثلاثة أيام

أصبحت (هيلجا) بالأوراق .. وللمرة الأولى بدا على وجهها قلق عارم .. هذه المرة عرفت (ميمون) النتيجة من قبل أن تسأل .. يعرف المتهم في جريمة قتل القدر حتما يعود المظنون للقاعة ولا ينظرون إليه .. إنه الإعدام إذن ..

« لأصف أنت في مرحلة متقدمة من المرض .. لم تصلى لدرجة (الإيدز) بعد .. لكنك تمرين بما عكفوا يسمونه قديماً : المركب المتعلق بالإيدز ARC .. حيث يعاني المريض العنوى الانتهازية من دون أن يتدهور عدد خلايا CD4 كثيراً .. »

لم تستطع البقاء على قدميها وهي تتحسس ركبتيها :
 « لكن .. التحليل السابق كان سلبياً .. أنت قلت ذلك ..
 إذن لم تكن الأجسام المضادة قد ظهرت بعد ؟ »

مطت (هيلجا) شفيتها السفلى المبرقشة ، وقالت في حفاضة :

- « لا .. ليس الأمر كذلك .. إن مرحلتك متقدمة عما
قلت لك ، ومعنى هذا أنك مصابة بالفيروس من زمن .. لقد
كان الفيروس في دمك ، لكن اختبار الأجسام المضادة كان
سلبيا .. كان خطأ .. ولذلك أسباب عدة .. منها أن تكونى
مصابة بالمalaria أو بسرطان عنقوى .. ومنها أن تكونى فى
مرحلة متقدمة جدًا لو متأخرة جدًا من المرض .. ومنها أن
تكونى حملت مرارًا من قبل .. كل هذا يعطى نتيجة سلبية
زائفة .. »

إن (سيمون) تعرف أنها غير مصابة بالمalaria ولا سرطان
الأمف .. لكنها حملت كثيرًا من قبل ولم تظهر بطفل ..
هذا يفسر النتيجة الزائفة التى أسعطتها بضعة أيام ..
بصوت هامس قالت وهى تبحث عن منديل تمسح به
عبراتها :

- « لقد أصابنى بالعدوى !! كنت أتوقع هذا .. »

قالت (هيلجا) وهى تتحاشى نظراتها :

- « ليس الأمر بهذه السهولة .. لقد رأيت أبحاث زوجك

اليوم .. مستوى الفيروس لديه أقل منك .. خلايا CD4 أعلى منك .. باختصار هو في بداية المرض .. بينما أنت تقتربين من نهايته .. حتى لو أصابك العدوى فما كنت تبلغين هذه الصورة بهذه السرعة .. »

اتسعت عيناها رعباً ونظرت إلى الشمطاء الذي بدا كأنه وجه صنم وثني يطلب القرابين من قلوب الأطفال لتابضة .. وتساءلت في رعب :

– « ماذا تريدون قوله ؟ »

– « زوجك لم ينقل لك المرض .. »

وتهضت خارجة من مكتبها ذي الجدران الزجاجية وهي تستكمل جملتها :

– « أنت من نقل المرض لزوجك !! »

★ ★ ★

الآن يمكنها أن تتذكر ..

هل كان هذا من أربعة أعوام ؟ خمسة ؟

الدم ينزف منها ويغطي المصحة .. إتهم بصرخون
ويركضون ..

الإجهاض يتكرر .. هذه المرة توجد مشيمة وقد انفصلت
قبل الأوان الدم يسيل نهائياً ..
كسب أمراض النساء ..

الطبيبة الصينية (ماى فاي لين) يلتفتها العجيبة تكلم
لها ضئط الدم ، وتصرخ فى الممرضات :

« صدمة .. هذا صدمة شديد .. بالارما .. هل
لم ؟ أم ؟ »

الآن هي رايدة على منضدة الجراحة .. تشعر بالعرق البارد
ويحتشد على جبهتها - روحها تقوس من حين لآخر داخل
المنضدة لتتنفس محاولة أن تعدها إلى السطح ..

الطبيبة الصينية تجلس بين مائيتها المتباعدين ، وتبدأ
لفعل .. بينما طبيب التخدير يولج قناعه وريدية فى كلا
ذراعيها .. ويصرخ فى غلظة :

« أين هذا الدم ؟ »

بلى الكيس الأحمر للقلبي القلبي» بالحياة إلى درجة
الانفجار .. يحلقه الطيب ويدأ قدم يتعصب لينخل إلى
عرونها .. هنا فقط يسأل الطيب للمرضة التي جلبت الدم :

« هل تلتك من الصيلة وفحوص الفيروست ؟ »

« إنه لوحده المتاح .. ولم يتسع لوقت

الآن كان يفرغ محقن (البنتونال) في القبة الوريدية
في الفراغ الآخر ، وقد قرنت إلى عالم اللاوعي قبل أن
تسمع بلى ما قلته للمرضة ..

و حين أفاق من السبات كانت قد نسيت كل شيء ولم
تعد إلا حيرة الطفل الذي فكته .. والذي سيكون الأخير
على الأرجح ..

الآن تعرف ما قلته للمرضة ..

تعرف لماذا لم ينزع الطيب الدم .. لأن الخطر القريب
كان أهم من الخطر البعيد .. لو لم تتلقى بما نسقت أمام
عينيه .. بينما يوجد احتمال لا بأس به أن يكون هذا الكيس
نظيفًا كماء طفل .. طفل له سنيمة طيحا ..

الآن فقط تفهم كل شيء ..

كان زوجها بريئاً كما قالت الروسية .. وكان الساقى
(ألبرت) يستغل سذاجتها ليظهر ببعض المال ..

كان زوجها يتردد على ذلك النادي بدافع الملل .. لكنه لم
يفعل شيئاً إلا لعب البلياردو ..

ثم بدأ يدرك حقيقة أنه مريض .. بدأ يدرك أنه مصاب
بتلك الفيروس اللعين ..

من أين جاء ؟ هو يعرف أنه لم يتعرف إتماً .. لقد جاء
الداء من زوجته طبعاً ..

هذه المرة لم يشك فيها ، وإنما كان يعرف أن إصابة طبيب
بالمريض خطر مهنى قائم .. وهو يعرف أنه مريض بلا علاج ،
ومن الخير لها ألا تعرف الحقيقة .. لقد دارى السر الرهيب
عنها وراح يرزح تحت أطنان من الهموم والتوجس ..

فى النهاية قرر أن يتخلص من حياته .. لأنه لا يريد أن
يراهم يموت أمامه .. تصرف طفولى أتانى لكن منذ متى لم
يكن (لوى) طفلاً أتانياً ؟

لما هي فكنت تحمل المرض لكنها لم تصب بآفة أعراض ..
 لم تمر بالمتلازمة القهقرية الحادة .. أو مرت بها بشكل
 بسيط جدًا من أربعة أعوام .. نطها حسبت أنها أصيبت
 بتزلة برد ..

عشت تمارس حياتها الطبيعية بينما الفيروس يمرح في
 دمها .. يلهي خلايا CD4 بلا تحفظ ..
 حتى جاءت لحظة الحقيقة ..

★ ★ ★

فتح الزوج عينيه فوجدها تجلس جواره .. ورفع عينه
 أكثر فوجدني و(برنات) .. لقد أخبرتنا بكل شيء ..

قالت له وهي تضع أنامله على شفتيها :

« الآن أعرف كل شيء .. أنا من سبب هذه المأساة
 ولا أعرف كيف اعتذر .. »

قل في إتهاك وهو يمرر يده عبر خصلات شعرها
 القصير الأسود :

- « لم يكن قلبك ولا قلبى .. لكنى لم أتحصل فكرة
أن تمرضى قلبى وأن يأتى موعدك قلبى .. فكرت فى
الهرب ولم أفكر فى مشاعرك حين تجدون جثتى فى
المقاس .. »

- « طفل قلبى .. كما كنت يوماً .. »

ثم رفعت صوتها نوحاً وقالت :

- « أعرف أن مرضنا عسير وبلا شفاء تقريباً .. لكننا
سنصمد معاً .. وفى النهاية سنتنصر أو نذهب لذات القبر ..
معاً .. »

قلت لها ولنا حلول ألا يتهدج صوتى :

- « إن العلم يشب وثبات عائلة يا (سيمون) .. ربما خلال
عام أو اثنين يظهر علاج جديد أكثر فعالية .. »

وقلت (برنات) التى بدأت الدموع تسيل فعلاً من تحت
عيناتها :

- « لم يبلغ أحكما مرحلة (الإيدز) بعد .. معنى هذا أن

هناك أملاً ، وأن أملكها بعض الوقت .. ربما خمسة أعوام أخرى .. في هذه الأعوام قد يحدث الكثير .. إن هؤلاء الساهرين في معهد (باستير) وكل المختبرات الصالحة في أمريكا لن يتوقفوا حتى يصير الإيدز مثل التيفود والذعر قضية منتهية .. »

قلت لـ (سيمون) متصدداً لضغط على كلماتي لأؤكد أنها لم تصدر لئلا تثير ذعرنا :

« إن بيتنا مفتوح لك في أي وقت .. لو أردت قضاء الليلة عندنا فللدار دارك .. »

ثم إنني جذبت (برنات) من طرف خلفي كي نغادر الغرفة ..

لا مكان لنا هنا الآن ..

سيبقى اللغز يقع في الظلام ..

بين أحراش إفريقيا وفي أزقة (سان فرانسيسكو) وفي حلة في (هونج كونج) وفي ثلاجة دم في (موسكو) ..

متى بدأ ؟ من أين جاء ؟ وكيف ينتهي ؟
 لا أحد يعرف .. ولكم وددت لو أجبت على هذه الأسئلة ..
 لكن هذا للأسف الشديد خارج نطاق عملنا هنا في
 (سافاري) ..

د . علاء عبد العظيم

(أنجاوانديري)

تمت بحمد الله

سافاري

مغامرات طبيب بلاد بحداد
لكن يفكر حيد وكو يفكر بحداد

روايات
مصرية
الحبيب

H.I.V

قالوا إن الفيروس يختلف عن المرض... المرض الذي
تنتشر فيه المناعة إلى أقصى حد، ويصل المريض إلى
مرحلة الإصابة بالدم لو قرأ اسمه مكتوباً - لو كان شراً
كهذا ممكناً - وولدت لفظة جديدة تصف المرض،
وسرعان ما صارت على كل لسان وهي كل جريدة... لقد
ولد تعبيراً (متلازمة نقصان المناعة المكتسبة) .. أخذوا
الأحرف الأولى من العبارة فولدت اللفظة المرهوبة...
الإيدز...



د. أحمد خالد توفيق

مطابع
الكتاب

الكتاب في مصر
ومما يملكه بالولايات المتحدة
في سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم
توركانا

